أقنعة الحب

للدكتور وليم شتيكل

«صور بسيكوانالتيقية»

نقله الى العربية وشرحه

أحمد سامح الخالدى

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

ما هي البسيكو انا ليتيقا ؟ (التحليل النفسى)

عنيت قبل مدة بدراسة (علم البسيكو انا ليتيقا اي التحليل النفسي) كغاو لا كمحترف ، وافدت منه فيما افدت فهم أغراض الناس الخفية وتتبع بعض معضلاتهم النفسية واسباب تقلب حالاتها . وقد رأيت ان انقل الى العربية كتاب « اقنعة الحب » للعلامة شتيكل النمساوي احد ائمة هذا العلم ومن تلاميذ العالم فرويد مؤسس هذا العلم ومبتكره ، ولو خالفه بعض الاحيان .

فكتبت له استأذنه بذلك ، وقد تكرم فاجاب بالايجاب اكراماً لخاطر الف ليلة وليلة على حد قوله (ذلك الكتاب العجيب الذي لم يعرف العرب قيمته بعد) ووجه انظاري الى ذلك الكنز في دراسة (البسيكو انا ليتيقا) كما قال . فرددت عليه شاكراً عطفه وكرمه .

وعلم التحليل النفسي علم حديث ، يشبه « علم السموم » من بعض نواحيه . ففي قليله شفاء للناس وفي كثيره خطر قد يفضي الى الهلاك ولهذا فكما لا يصح استعماله وتطبيقه إلا باشارة طبيب حاذق مدرب ، كذلك لا يجوز تطبيق هذا العلم واستثمار اسسه عملياً ، إلا لمن حذقه من اهل الاختصاص فيه .

وعلم « التحليل النفسي » هو احدث العلوم جميعها يتناول معالجة

الحالات العصبية المضطربة المعروفة « بالنيوروز[١] » . بل هو تحليل لمحتويات العقل . ويدرس هذا العلم اسباب عوارض المرض وخفاياه الحقيقية . فلا يكتفي ببحث اصول هذه الاعراض بل يبحث في معالجتها في الوقت نفسه ايضاً .

هو إذن دراسة علمية لدوافع الانسان اللاشعورية ، ولرغباته وآماله كما يتبين في الاضطرابات العصبية المختلفة وفي مظاهرها المتنوعة التي تبرز لنا كل يوم في حياة الافراد الاصحاء منهم والمرضى . وقد تبين ان الكثير من اعراض « النيوروز » تنتج عن رغبات لا تُرضى تعود اصولها الى ايام الطفولة . فهذه الرغبات لا تؤثر على تكوين الخصال الخلقية فحسب ، بل هي مسئولة عن انواع مختلفة من الامراض العصبية .

منشأ هذا العلم

ان تاريخ تطور (التحليل النفسي) يؤلف فصلا شيقاً في تاريخ الطب . كان ذلك في سنة ١٨٨١ عندما عالج فرويد ورفيقه بروير ، وكلاهما من فينا ، شابة كانت تشكو من مرض الهستيريا . وحاولا عبثاً معالجتها بالطرق المألوفة ، إذ ظهر ان المريضة لم تعرفهما إلا بجزء يسير من تاريخ مرضها . ولم يكن ذلك مقصوداً منها ، بل كان مسبباً عن كبت لا شعوري ، لان حالتها العاطفية التي ألفت جزءاً من

---

(١) حالة عصبية مضطربة منشؤها في العقل اللاشعوري .

الحقائق التي اخفتها كانت تمثل اختبارات مؤلمة لديها . واخيراً تمكنا بطريقة – هي اسلوب التحليل النفسي – ان يكتشفا كثيراً من الاختبارات الخفية ، واثبتا ان هذه الاختبارات كانت منشأ حالة الهستيريا . ومع ان تلك التذكارات كانت قد دفنت في اللاشعوري إلا انها كانت قوى حية فعالة ، ولم يتم الشفاء إلا حين برزت من جديد . لم تكن تلك الاختبارات منسية ولكنها كانت مكبوتة في اللاشعوري ، ولما تغلب على ذلك الكبت ابتدأت المريضة تتحسن . وقد جربا التنويم المغناطيسي في بادىء الامر بقصد بعث التذكارات المنسية بعثاً جديداً ، ولكن وجد في آخر الامر ، ان لا مكان للتنويم المغناطيسي في هذا العلم ، ومن ذلك الوقت استغني عن التنويم . وفي سنة ١٨٩٣ نشر كل من بروير وفرويد ابحاثهما عن الهستيريا ، واظهرا ان اعراض الهستيريا تنشأ من تذكارات قديمة مجهولة ، منسية من قبل المريض . واثبتا ايضاً ان هذا النسيان كان مقصوداً ، كما يتعمد المرء الصحيح ان « ينسى » اختباراته المكدرة في الحياة .

وفي سنة ١٩٠٠ نشر فرويد كتابه العظيم « تفسير الاحلام » وهكذا شق الطريق للبحث في حقل جديد من المعرفة عن العقل اللاشعوري في الاصحاء والمرضى . وكان « النفاريز اي العصبيون(١) » يقصون عليه احلامهم الغريبة وقد وجد ان لكل حلم مغزى شخصي عميق للحالم، بل كانت نتيجة لحياة الفرد العقلية اللاشعورية، كما هي او بشكل رمزي. وقد اثبت بلا جدال ان كل حلم هو ارضاء للرغبات المكبوتة.

---

(١) Neurotics

وأبان تحليل الاحلام عن ميكانيكية المخاوف المرضيّة والهستيريا ، والاختلاطات والوساوس ، والتفكير الاجباري ، والافكار «الراسخة» المثبتة ، كما جهز هذا التحليل بخير اداة لازالة تلك الاعراض المرضيّة فيما عرف بعد ذلك بالتداوي « البسيكو انا ليتيقي » .

وهكذا فان فكرة فرويد الاساسية تقوم على ان قسماً كبيراً من الطرق الذهنية الصحيحة ، والشاذة ، انما منشؤها مصادر خفية ، بل مجهولة من قبل الفرد ذاته . وهكذا تمكن هذا العلم أي التحليل النفسي من بناء جسر نعبر عليه من التفكير الصحيح الى الحالة العقلية الشاذة .

تطبيق هذا العلم في غير مجال الطب

لقد نفذ هذا العلم الى غير مجال الطب . فقد طبقت مبادؤه بنجاح لا على مساعدة مرضى الاعصاب فحسب ، بل على تفسير مصادر الفطنة اللاشعورية ، والانتاج الادبي ، والخرافات ، والمعتقدات ، والتقاليد ، وهفوات اللسان ، والارقام ، والنسيان عند الاصحاء . وقد الف فرويد كتابه «المياسم والمحرمات» ونشر دراسة تحليلية (للينارادو دي فنتشي) وكتب عن علاقة الفطنة باللاشعوري . كما الف نظريته في الحياة الجنسية ، والمرض النفسي(١) للحياة اليومية .

ويعالج فرويد في نظريته في الحياة الجنسية نمو الغريزة الجنسية وعلاقتها بالكبت ، من الناحيتين الاجتماعية والفردية ، والدور الذي يلعبه الكبت في تطور الحالات العقلية الشاذة .

(١) بسيكو باثولوجية الحياة اليومية .

اما بسيكولوجية الحيـــاة اليومية فيظهر ان الخالات العقلية اللاشعورية وميكانيكيتها هي التي تسبب هفوات اللسان والكتابة(١) ، ونسيان الاسماء والكلمات الخ . وهي مطابقة تماماً لميكانيكية العقلية التي تولد الحالات العصبية المعروفة « بالبسيكو نيوروز » .

وقد ابان في كتابه « المياسم والمحرمات » ان الارجاع الدفاعية في الفرد والجماعة ، والرمز عن العواطف المكبوتة ، هي في الانسان الوحشي ، والمثقف سواء . اي ان المحرمات عند الجماعات المتوحشة هي مطابقة تماما للمحرمات في الجماعة المتمدنة .

وبنى دراسته عن (ليـــاردو دي فينتشي) عـــلى جزء من تذكارات ليناردو ايام الطفولة ، ثم علل هذه التذكارات بأنها اساس عظمة الفنان ، ومنشأ ابتسامة (مونا ليزا(٢)) الساحرة .

اما كتابه عن الفطنة فقد أبان بأن الفطنة والضحك هما اسلوبان يتمكن اللاشعوري بواسطتهما من امتـــلاك اعظم قسط من اللذة والسرور في اقصر زمن . وان البنيان البسيكولوجي للنكتة يشبه كثيراً البنيان البسيكولوجي للحلم .

وقد قام غير فرويد طبعاً بابحاث قيمة في هذا البـاب ، فكشفوا نواحي هذا العلم الطبية والثقافية ودرسوا العلاقة بين الخرافة والحلم ، وقابلوا بين ميثولوجية الشعوب وامهات الانتاج الادبي (كهملت)

---

(١) لهذا لا يصح القول بان لكل عالم هفوة وعنده ان كل هفوة مقصودة .

(٢) الصورة الفنية الرائعة .

و (ليدي مكبث) الخ. ومن اشهرهم صاحبنا الدكتور شتيكل صاحب هذا الكتاب وغيره .

من يجب ان يمارس هذا العلم ؟

يجب ان يمارس هذا العلم المدربون خصيصاً له . اما غير المدربين فـــلا يجوز لهم تطبيقه واستعماله كما لا يجوز للجاهل ان يستعمل (الراديوم) مثلا، اذا جهل طبيعة (اشعة X) او كما لا يجوز لاحد ان يتعاطى الجراحة اذا لم يتقن علم التشريح .

ويختلف الرأي عند الاطباء في شأن هذا العلم وخطورته وهم بين محبذ ومستنكر ، اما المعارضون فيجهلون حقاً فهم نظريات هـذا العلم واعراضه ، في العادة .

هـل للتحليل النفسي مضار ؟

ان بعض الاطباء ممن لم يتقنوا هذا العلم يرتكبون اغلاطاً فاحشة فيه عندما يحاولون تطبيقه . فمن هذه الاخطاء نصائح خاطئة يشيرون بها في بعض الصعوبات الجنسية ، والتشدد اكثر من اللزوم على الجزء المتعلق بالشؤون الجنسية ، ولا ينصح للريض عند تداويه ان يطـالع هذا العلم فان مثل هـذه القراءة قـد تضر به وتولد فيه حالة عقلية قد تنشىء فيه مقاومـــة عنيفة .

فالفشل في التحليل النفسي قد يعزى إما الى الاسلوب الخـاطىء

او الى فقدان الانتقال(١) او الى قوة المقاومة(٢) او الى نوع الحادثة التي يحاول الطبيب معالجتها .

هل لهذا العلم قوانين محدودة ؟

نعم ان له قوانين محدودة كقوانين الجاذبية ، مع انه يعالج المظاهر العقلية لا المظاهر الجسدية . فالتحليل النفسي هو علم ذو اصول عملية فنية محدودة . ولا علاقة لهذا العلم بالتاريخ الذي يرويه المريض لان المريض يعرف افكاره الشعورية ، كما يتبين من اجوبته على اسئلة الطبيب ، او من سرده صعوباته ومشاكله فجأة . وكثيراً ما يرجع المرضى اسباب مرضهم العصبي لحالات هي اسباب طائشة لا علاقة لها البتة بالدوافع الحقيقية للمرض . واكثر هذه الاعتقادات الخاطئة شيوعا هي تعليلهم مرضهم على انه مسبب عن الاجهاد في العمل . فارجاع هذه المحتويات الشعورية الذهنية الى اصولها اللاشعورية ، وبيان العلاقة بين السبب والنتيجة هو العمل الرئيسي لهذا العلم ولكل ظاهرة ذهنية سببها — وعلى هذا ، فالاعراض العصبية ليست من

---

(١) (الانتقال) هو الشعور بالعطف المعترف به ما بين المريض والطبيب المداوي . ويحدث هذا الانتقال في جميع اساليب المعالجة الطبية عندما يثق المريض بطبيبه .

(٢) المقاومة هي عكس الانتقال ، اي ابدال الشعور العدائي ليحل محل شعور العطف . ولهذه المقاومة مصادر مختلفة منشوءها العقل اللاشعوري . وهي نتيجة عراك بين الفكر والغريزة مما هو موجود في « العصبي ».

قبيل الامور العارضة او الصدف بل لها علاقة محدودة بطرق ذهنية مكبوتة في العقل اللاشعوري عند المريض . فاذا ما درس المداوي ، الاحلام ، والاعمال الرمزية ، واذا ما طبق على المريض اختبارات التداعي (١) استطاع حينئذ ان يرجع كل عرض من اعراض المرض الى مكانه في حياة المريض . وقد تكون هذه الاعراض ذات اصول في حياة الطفولة لذلك المريض . فيعالج المداوي ما يعرف «بانتقالات المريض العاطفية» ويرى السبب في «المقاومة» واخيرا يشير على المريض بأن يستفيد من قواه في طرق اجتماعية تعود عليه بالفائدة ، اكثر من انصرافه الى تنازعه العاطفي الذي يولد فيه حالة «النيوروز».

وهذا طبعا يحتاج الى يد حاذقة لطبيب يتقن نظريات هذا العلم وتطبيقاته .

وليعلم ان هذا العلم غير مقصور بحثه على المرضى ، بل هو ينفذ الى دراسة عقول الاصحاء ايضا ، فقد يساعد في احداث تغيير بعض الخصال الخلقية الضارة في اشخاص لا يشكون من مرض عصبي . ومن هنا تأتي بعض فائدة دراسة مثل هذا الكتاب الذي نعرضه الآن لقراء اللغة العربية .

واكثر ما يطبق هذا العلم على حوادث الهستيريا الحادة ، والنيروز الاجباري ، والمتلعثمين في الكلام . وحوادث النيورستينيا العادية

---

(١) هي اختبارات تتألف من كلمات يجيب عليها المرء فتدرس الاجابة وعلاقتها بالمؤثر .

والجنسية ، والسادزم(١) والمسوشزم(٢) ، والانعكاس الجنسي وبعض الاضطرابات الذهنية والجنون غير الحاد ، الخ .

وقد يساعد هذا العلم في تفهم ومعالجة حوداث (الكلبتومانيا)(٣) « الميل الجنوني للسرقة » وفي تعيين الدوافع الاصلية في بعض حوادث المخالفات الخلقية التي يقوم بها الاحداث . إذا كانت هذه الحوادث غير مرفقة بنقص أو ضعف عقلي .

اما من كانوا فوق الخمسين من عمرهم ، او من كان تلعثمهم حاداً ، وغير ذلك من حوادث الجنون المستعصية فلا يفيدهم هذا العلم .

ومن الضروري ان يكون المفحوص في التحليل النفسي صريحاً مخلصاً فلا يخفي شيئاً عن الطبيب . وفي استطاعة الطبيب النفسي ان يدرب المريض لكي يوجه قواه لما يعود عليه بالنفع الجزيل بدلا من استمراره في تنازعه مع مرضه ، او انهاك قواه في الافكار المرضيّة . ولا يفيد ان يقال للريض « اهمل هذا الفكر او ذاك من ذهنك » فانه ليس في وسعه ان يهمل اعراضه العصبية ومخاوفه ووساوسه ، كما ان ليس في وسع من يشكو ألماً في جسده ان ينسى ذلك الالم . اضف الى

---

(١) نسبة الى المركيز دي ساد سنة ١٧٤٠ — ١٨١٤ ، وهي نوع من الانعكاس الجنسي المشفوع بمحبة التعذيب والتلذذ به .

(٢) نسبة الى الروائي النمساوي الشهير وهي حالة من الغريزة المعكوسة يلتذ المرء فيها بان يعذبه غيره من الجنس الآخر .

(٣) ميل لا يقاوم للسرقة من قبل افراد من الجنسين من الاثرياء غير المحتاجين ، وهذا الميل نوع من الجنون .

هذا ان السفر وتغيير الهواء وما الى ذلك من النصائح المعتادة لا تفيد المريض العصبي « النفروز » ، لان هـذا النصح يفترض ان المرض العصبي هو مجموعة من الشكاوي التي لا معنى ، مع انها في الحقيقة مرتبطة ارتباطاً متيناً برغبات المريض ، ونوازعه العقلية ، ولها علاقة شديدة الصلة باختباراته في الحياة . على ان النصح والتفسير يفيدان إذا بنيا على مبادىء التحليل النفسي وقام بها الطبيب النفسي الحاذق . وينصح الذين يشكون من قلق في حياتهم ان يحللوا انفسهم نفسياً عند طبيب مدرب ماهر لمعرفة مصدر ذلك القلق ، ولا شك ان التحليل النفسي يفيد في بيان الحالة الحقيقية التي يشكو منها المريض او المتذمر ، فيستطيع تفهم صعوباته فهماً اتم .

مـا قيمة التحليل النفسي في تفسير تنشئة الخلق ؟

ان اللاشعوري هو ذلك الجزء من العقل الذي تنشأ منه ينابيع الخلق ، والذي يكوّن الخصال الاساسية في خلق الفرد . وكل فرد هو الذي يكوّن خلقه ومصيره . فالخصال الخلقية ليست موروثة . وخلق الواحد منا ترجع اصوله الى اللاشعوري ، ويتكون إما على اساس بواعثه الاصلية واختباراته في الطفولة ، او على اساس تصعيد(١) هذه ، او ما يقوم به تجاهها من الارجاع وردود الفعل . مثال ذلك

(١) نقل الباعث من حالته الى حالة ارقى ، اي الاستعاضة عن الباعث الاصلي بباعث ارقى وارضاؤه . مثل ذلك الولد المتباهي فانه بعد ان ينزع رفقاؤه عنه غروره يتباهى بمدرسته او بوطنه او ببلدته . ويعرف هذا بالتصعيد او التسامي .

شخص حيّ قد يصبح مقاتلا ، او طفل مدلل قد يصبح شاباً غـــير صبور . كما ان الطفل الحالم قد يصبح منكمشاً في ميوله ، او طفلا معتداً بنفسه قد لا يستطيع ان يحب فيما بعد . وللتكوين الخلقي اساس عاطفي اكثر منه ذهني . فالتحليل النفسي قد ينفذ الى اسس بعض الخصال الخلقية ، وهكذا يساعد عـــلى محو تلك الخصال غير المرغوب فيها في الفرد او تغييرها .

هل للوراثة عـــلاقة بالنيوروز (المرض العصبي) ؟

لا . لا علاقة مباشرة بينهما إلا من ناحية شيء من الاستعداد . (فالنيوروز) او المرض العصبي لا يورث او ينقل ، ولكنه ينشأ من نزاع الفرد العاطفي . ولو قلنا ان الحالات العصبية هي وراثية ، لوجب ان يقف البحث العلمي في معالجـــة الامراض العصبية ، ولكانت جميع طرق معالجتها ، فاشلة وهو ليس صحيحاً . (فالنيوروز) حالة مكتسبة لا تورث . وما ينعته كثير من ادعياء العلم بالوراثة في الاطفال ليس سوى تقليد منهم للكبار .

لماذا يبدو المرض العصبي كأنه يظهر فجأة في دور خطير عاطفي؟

لان المريض يكون قد تكيف تكيفاً جديداً ، بل هو نوع ضروري من التكيف الذهني الجديد لملاءمة الحـــالة الجديدة ، هكذا ينشأ المرض العصبي فجأة ، ليس من جراء صدمة عاطفية او من تعب وجهد فحسب ، ولكن من اصول عاطفية وميول قديمة كان المريض

منذ سنوات يكبتها في عقله اللاشعوري . ومعنى هذا ان (العصبي) يكون قد عاد مرة ثانية الى بعض افكاره المشتتة منذ الطفولة . فالتعب والجهد ، والقلق وما اشبه مما يسبق الحالة العصبية ليست هي الاسباب الحقيقية وإنما هي مهيجات . فكل واحد منا معرض للمرض العصبي الى درجة ما ، لان صعوبات جديدة تنشأ امامنا كل يوم ، ونحن نحاول ان نقلل من شأنها بأن نتوارى في داخلية نفسنا . وفي هذه الحالة الذهنية ، تزال الصعوبات موقتاً ، ولكن الحالة ذاتها هي المرض العصبي ومعنى هذا ان (النيوروز) هذا يعني بأن المريض يرغب ان في يتهرب من القيام بعمل ما ، او من مجابهة مشكلة جديدة من مشاكل التكيف التي يصادفها(١) .

هل يولد الاجهاد مرضاً عصبياً ؟

إن الاجهاد في العمل لا يمكن ان يولد مرضاً عصبياً ، إلا إذا كانت التربة قد اعدت له قبل ذلك . فالاجهاد إنما يقلل من المقاومة ، فيتمكن المرض من الظهور . فهو إذن لا يولد المرض ، لان اعراضه لا تتناسب مع التعب الجسدي الحقيقي . اضف الى هذا ان التعب الذي يشكو منه مرضى الاعصاب هو تعب كاذب وليس هو بالتعب

(١) اذا حدث نزاع بين الذات الباطنية والذات الظاهرية وتغلبت الاولى نشأت حالة الجنون وانتقل الفرد من عالم الحقيقة الى عالم الوهم والخيال اللذيذ ، واذا تغلبت الثانية تمّ التوازن وكان عالم الحقيقة هو المنتصر ، واذا ظلت الحرب بينهما سجالا كان الرجل القلق الذي لا يستقر على حال .

الجسدي الحقيقي . من اجل هذا ، فان مثل هؤلاء المرضى يشعرون بتعب اشد في الصباح ، ويزول هذا التعب تدريجياً كلما تقدم النهار ، وهذا يعلل ايضاً بان مثل اولئك المرضى لا يشفون بالراحة .

ما علاقة التحليل النفسي بالتربية ؟

إن الغرض من التحليل النفسي ان تستثمر قوى الفرد بحيث نجد لها منفذاً طبيعياً . ولذا ، فلهذا العلم مجال تربيوي ، لانه يحاول ان يستثمر كلما هو حسن في الفرد لاغراض عملية . اضف الى ذلك ان سنوات الطفولة الاولى هي مهمة جداً للحافظة على الصحة الجيدة والخلق المتين . وفي هذه السنوات كما هو معلوم تكون التربية المبنية على اسس التحليل النفسي ذات اثر فعال عظيم في منع حدوث الامراض العصبية في المستقبل او في تكوين خصال خلقية غير مرغوب فيها . فكثير من العادات السيئة في الصغار كالكذب والسرقة هي اشكال اولى لاعراض مرض (النيوروز) في الكبر .

ويجب ان يشجع الاطفال لايجاد منافذ طبيعية مناسبة لرغباتهم ، وإلا انقلبت هذه الرغبات باطنياً فاثرت على ذاتهم . فتحول الى احلام النهار ، او الى نوازع عقلية اوعاطفية وهي التي تحدث المرض العصبي بالاكثر . ويجب ان يتجنب بالاخص ان نرسخ في ذهن الاطفال الشعور بارتكاب الجريمة والذنب والعار والخوف ، والتشدد على القصاص ، او تخويفهم من (البعبع) او (الغول) وما الى ذلك .

ما هو مستقبل علم التحليل النفسي ؟

إن مستقبل علم التحليل النفسي يتوقف على تحسين اساليبه وطرقه وعلى تقدم البحث في التحليل النفسي اجمالا ، وعلى دراسة نتائج الاحصاءات دراسة نيرة ، لمعرفة مدى تأثير العلماء المختلفين في نواحي هذا العلم المتشعبة . واخيراً الاستزادة من تعريف الاطباء العاديين بنظريات هذا العلم وتطبيقاته .

ويقيناً ان هذا العلم ينير سبيلنا في دراسة الطرق الحقيقية او في فهم الميكانيكية التي تؤلف حالات الاضطراب العصبي ، مثال ذلك ان المرض العصبي ليس مسبباً عن الاجهاد في العمل ، بل يرجع سببه الى كبت العواطف وقهرها او عدم ارضاء الغرائز .

ان اسلوب التحليل النفسي للبحث في طرق الذهن اللاشعورية يبشرنا بمستقبل باهر لهذا العلم .

مؤلف الكتاب

ولد الدكتور ويليام شتيكل سنة ١٨٦٨ ويعتبر من اكثر تابعي فرويد انتاجاً ولو خالفه في عمل العقل اللاشعوري . وهو اديب شاعر فوق كونه عالم بسيكولوجي من الطراز الاول . تشتمل كتبه النفيسة على تطبيق التحليل النفسي على جميع مظاهر التداوي النفسي ، وعلى مجال الفن والادب والعلوم الاجتماعية .

وقد نشر كتابه هذا لاول مرة سنة ١٩١٦ ويعتبر كتابه الاول .

ومن كتبه « الذات المحبوبة » و « خبايا النفس » و « حالات الشوق العصبي ومداواتها » الخ .

ومن رأيه ان يصبح الطبيب النفسي مربياً لمريضه ، وان الطبيب هو الذي يداوي « المريض العصبي » لا طريقته .

النتيجة

والآن وقد قرأت ايها القارىء الكريم ما لخصناه لك من مبادىء هذا العلم العجيب ومراميه يمكنك ان تقدم على قراءة هذا الكتاب الفريد والاستمتاع بما جاء فيه من الوصف الجذاب ، والتعليل العجيب ، والتفنن الغريب لاماطة اللثام عن (اقنعة الحب) التي تختفي وراء مظاهر تسيطر على سلوك جميع الناس وهم لا يدرون . ولا نحاولن ان تصبح « استاذاً » في هذا العلم بعد قراءة هذا الكتاب او غيره بل العق العسل ، وتلذذ به ، فان فيه لمتعة وان فيه لفائدة لك ولاولادك ولذويك إن شاء الله .

احمد سامح الخالدي

القدس ــ جبل المكبر

الفصل الأول

الانسان الباطني

ماذا يعرف الواحد منا عن الاخر ؟ ما اكثر ما نتصور اننا نعرف شخصا معرفة تامة ، فنتخيل باننا نفذنا من الغشاء الخارجي الى اعماق نفسه ، الى ان ترينا غلطتنا حادثة من الحوادث غير المنتظرة ، او عملا فجائيا ، او كلمة قيلت عفواً .

فنجد وقد اخذت منا الدهشة كل مأخذ اننا كنا مخطئين واننا قد سمحنا لانفسنا بان تغش فتأخذ بظواهر الامور دون حقيقتها . هذا وان منظر جماعة فرحة من الناس — يتكلمون ، ويتبادلون خبايا نفوسهم ، ويرددون عبارات التقدير الاخوية والتهنئة كل ذلك في جو ظاهر من السرور الخالص والصداقة — تذكرني بمشهد يختلف جداً . فانني ارى اولئك الناس على حقيقتهم يتهكمون ويحسدون ، ويملأ الحقد والعداوة قلوبهم نحو بعضهم . أنني ارى « الانسان الباطني » .

ولو سمحت الاحوال بان يعرف الواحد منا شخصا معرفة صميمية حقا ، لدهشنا للفارق العظيم بل الهوة العميقة بين الانسان الظاهري والانسان الباطني . ويستغرب الواحد منا بان يرى مقدار خصب الحياة الباطنية ، وما عليه الرجل الظاهري من فقر مدقع بحيث لا يدل على ما في باطنه من ثراء عظيم . اضف الى هذا ان اثارنا الفنية ،

ورواياتنا المتعبـــة التي تدور دائما حول المواضيع ذاتها ، ورواياتنا التمثيلية ايضا ، التي تعـالج دائما ذات النوازع — بمشي مع ذلك الملل الذي يرافق الآلة الموسيقية التي تظل تعزف ذات النغم القديم — جميع هذه تظهر امامنا فقيرة تافهة لا قيمة لها . فالفنانون العظام هم وحدهم الذين يستطيعون ان يمثلوا جزءا صغيراً من الانسان الباطني. لا اشك في ان في استطاعتهم ان يدركوا ويعيدوا لنا تصوير الانسان الباطني بكامله ، ولكنهم لا يجرؤون عـلى ذلك ، إذ انهم ينكمشون من الرؤية المخيفة ، فلا هم ولا نحن يقدرون على تحمل الصدق او الاعتراف به . ولم يكتب احد بعـد تاريخا صادقا كاملا لاي فرد من الافراد ، ولو مثلت لنا مثل هذه الصورة تمثيلا صريحا مخلصا لصرفنا بكل تأكيـد نظرنا عنها ونحن نرتجف وقد تتنفس الصعداء فتتملكنا الجرأة فنعترف قائلين : ونحن ايضا مثل ذلك الرجل . فالشعور بالاثم القاهر الذي يشكو منه العصبي (النفروز) إنما منشؤه جهلنا بمعرفة (الشخص الآخر) . (فالشخص الآخر) يؤلف في نظرنا جزءا كبيرا من المثل الاعلى الذي يعز الوصول اليه ، والذي لا نجرؤ ان نقارن انفسنا به ، ولِمَ ذلك ؟ ذلك لاننا لا نعرف ذاته الباطنية .

والاختبار برينا كل حين ان الانسان الباطني يختلف اختلافاً تاما عن الانسان الظاهري الذي نتخيل بأننـا نعرفه معرفة جيدة . جاءني من مـــدة غير بعيدة رجل يطلب ابداء رأيي في حالات مزاجية مستعصية من حالات الانحطاط العصبي كانت تعتريه . ولمـــا سألته عن مهنته اجاب « ستضحك مني يا حكيم — فانا ممثل هزلي » .

ونحن نجد الشيء ذاته في المجانين وغيرهم من الذين يجعلون غيرهم من الناس يضحك . فان هذه الهبة الالهية اي المزاح التي يستطيعون ان ينقلوها الى غيرهم هي مفقودة بتاتا في الانسان الباطني .

واذكر سيدة عرفتها في المجتمع سنوات عديدة . فقد كانت من النوع البهيج المرح من الناس . وكانت ضحكتها المرحة تطغى على جميع الاصوات وكان نشاطها البازر يملأ الغرفة جميعها ويبعث فيها الحياة المرحة . وما اعجب ما كانت ترينا النظرة الى اعماق نفسها . لقد كانت طبيعتها تمتاز بالرزانة ، ولقد كانت تتثاقل في حياتها المزعجة بالقرب من زوجها الذي لم تكن تحبه . واي فائدة في انها كانت تعزه وتحترمه وانه كان رجلا طيبا وانه كان يحقق لها كل رغباتها ؟ فلم تكن لتحبه بل لم يكن ذلك في استطاعتها ، بل كان الامر على العكس من ذلك فقد كانت هناك قوة غامضة تبعدها عنه ، بل كانت كل لمسة من لمساته الناعمة تحدث فيها قشعريرة جسدية تكاد تكون نفوراً واشمئزازاً ، ولمَ هـــذا ؟ لم تكن لتستطيع تعليل ذلك . لقد كان ذلك سر نفسها العظيم — سراً مظلماً عجيباً ، غير مفهوم ، شأن جميع العناصر التي تشمل الحب . ونحن نتصور احياناً اننا نعرف السبب الذي من اجله نحب . فنأخذ نبرر غرائزنا تبريراً معقولا ، ونلبس شهواتنا الغامضة ارادة منطقية ؟ ولكن ماذا تخفي هذه الملابس ؟ وما هو لغز العطف والتنـــافر .

ان المرأة التي تكلمت عنها لم تكن تعرف لماذا لم تكن تحب زوجها . فلقد كانت في الظاهر تلعب دور الزوجة المخلصة المحبة . نعم

كانت تلعب هـــذا الدور ؟ كلا — بل كانت زوجة مخلصة محبة . ولم نكن لنتصور ممرضة اكثر اخلاصاً من هذه المرأة التي انجهت جميع رغباتها وجهودها الى تحرير نفسها من رق ذلك الرجل . ولقـد كانت السنة تمر بعد الاخرى وهي تلهو في احلام النهار الواهية . ولقد كانت في الظاهر عنوان السرور بل خلاصته ولـكن لما كانت دموعها تنهمر دائماً باطنياً استمر سيلانها مدة الى ان فاضت في النهاية فاغرقت سرورها ، وقررت ان تنهي حيـــاتها بيدها ، ولم يكن لها اي دافع في الظاهر — وقال الناس : انها ساعة جنون !

لقد كانت هذه فاجعة صغيرة من فواجع ومآسي هي كعدد رمال البحر تحدث كل يوم . ولذا تعروني شبه قشعريرة عندما اشاهد جماعة من الناس يرغبون في « تضييف » بعضهم بعضاً وهم يحاولون اقتناص « مسرات » الحيـاة ، سواء على المرسح ، او في الحفلات الغنائية ، او الحفلات الراقصة . يا حبذا لو تمكن الواحد منا من ان ينظر الى اعماق نفوسهم ، إذن لظهر للعيـان مقدار الحزن والاسى ، والقلق واليأس والشهوة الخشنة الوحشية . والاثم المحجب والبـــواعث الوحشية المقهورة بشيء من الصعوبة . كل فرد منا يجتاز الحياة ومعه الوحش الضاري المقيد ، يقطع السلاسل او يهز قضبان القفص . وفي الحق ان الناس لا يحلمون دون ما سبب بان الحيونات المفترسة كالاسود والنمور والكلاب المتوحشة ، والخيول الهـاربة تقتفي اثارهم . فالاقدمون تمكنوا من تفسير هذه الاحلام بانها شهوات تلازمنا ، او بواعث مكبوتة نخشاها

ولكنني لا ارغب في ان اتكلم عن الحيوان في الانسان إذ يمشي جنباً الى جنب مع هذه الشهوات الجامحة فينا ، اشرف وارق البواعث الانسانية . ولقد قيل ان القلب هو مقبرة الرغبات والآمال المدفونة . فالتشبيه خاطىء ، ذلك لان الرغبات والآمال ليست ميتة ، فالاستسلام والحنين ، والثورة والسخط ، جميع هذه حيل بينها وبين العالم الخارجي بقضبان حديدية وقد لا تظهر في وضح النهار . والانسان الظاهري لا يرينا شيئا من رغباته المدفونة ، إذ يظهر انه مسرور ممتن بل راض من نصيبه ، فهو ينهك نفسه في اعماله كل يوم . ولكن الانسان الباطني لا يستطيع ان ينسى افكاره الجميلة في عهد الطفولة ، فهو لا يزال يحاول الوصول الى الاعلى والافضل والاجمل ، وهو يندب ما في الحياة من فراغ ويشكو مما يصادف كل يوم من خيبة الامل والفشل . فهو في اعماق نفسه يحاول في حيرة وقلق حل مشكلات الانسانية المظلمة . فلا يرى امناً او سلاما ، من اين ؟ والى اين المصير ؟ ومن ثم لماذا ؟

وقد يصبح الانسان الباطني قويا بحيث يتغلب على الظاهري . هذا الغلب نسميه المرض العصبي ، ونأخذ نشعر مع ذلك التعس الذي اطفئت في وجهه انوار العالم . من يدري لعل ذلك الذي ندعوه بالمجنون هو اكثر سروراً منا نحن العقلاء . ذلك ان المجنون يعيش مع ذاته — الباطنية فقد تهدمت الجسور التي تربطه بالعالم الخارجي ، ولكن حنينه وشوقه وامكانياته . ورغباته ومبتغاه قد اصبحت في نظره حقائق . وماذا يهم لو ان هذه الحقائق ليست قيمة إلا في نظره ؟ فان حمقه اكثر معنى لديه بل يقدم له من اللذة والسرور اكثر مما يقدم لنا فهمنا

نحن العقلاء . بين هذين الطرفين المتناهيين ، الوف من التحولات والانتقالات . فالانسان الباطني يثور على الانسان الظاهري ويبتدىء النزاع الابدي بين الاصوات الباطنية ، ومطالب الحقيقة ، فينتج عن ذلك ما نسميه خطأ بالامراض « العصبية » . وليس لهذه الامراض صلة بالاعصاب بقدر ما للساعي الذي ينقل اليك الاخبار المحزنة صلة بها . ان من المنطق الانساني المتأصل ان نربط الامور بابرز الاعراض ظهوراً ، وبما ان الالام العقلية تظهر نفسها في اضطرابات في الاعصاب ، تصبح النتيجة الجلية كما يأتي : ان اعصابي مريضة ، ويستطيع الاطباء ان يشاهدوا مراراً مظهراً غريباً . وهناك بعض الناس من الذين لا يستطيعون ان يصفحوا عن الطبيب الذي يشخص مرضا غير قابل للشفاء تشخيصا مضبوطا . اذكر عدداً من الحوادث امتنعت فيها بعض الاسر من دعوة الاطباء لانهم شخصوا واكتشفوا امراضا خفيت حقيقتها عن زملائهم . ان شعور الثورة ضد القضاء والقدر المحتوم يحوّل بسهولة لمن يحمل اخبار السوء . ولذا فان الاعصاب البريئة العديمة الضرر تجعل مسؤولة عن فقدان التناسق بين الانسان الباطني والانسان الظاهري ، والذي يحدث بواسطته سلسلة لا تنتهي من التنازع .

قد نقرأ في جريدة ما ، كل يوم ان السيد (ب) او السيدة (ج) قد انتحرا في فترة جنون موقتة ، إذ لم يكن هناك دافع ظاهري يفسر لنا هجرهم هذه الحياة هجراً ارادياً . كأن في امكاننا ان نعرف اي رجل معرفة تامة ، ان من المؤسف ولكنه حقيقي ، ان الاب لا يعرف ابنه

وان الزوج عادة لا يعرف زوجته ، وان الزوجة لا تعرف زوجها واكثرنا يجتاز هذه الحياة ونحن مجهولون . فنحن غرباء عن بعضنا واقربهم مودة الينا عادة ، هم ابعدهم عنا . واكثر الامور اسفا هو جهلنا لانفسنا . ففي توالي السنين في هذا السير المندفع الى الامام ، في الارتباك والمسرات يفقد الانسان الباطني ، ويضعف صوته شيئا فشيئا ، وتبدأ النصورات التي يبرزها امامنا اكثر غموضا . وينهك الحيوان ــ الوحشي نفسه ، وتفقد الرغبة قوتها ، فتصبح كالطير الذي قص جناحاه ، ويكون الانسان الباطني قد مثّل دوره فينتهي بان يعيش هو ذلك الدور . ويعرف هذا بـ « حس الاكتساب » .

ألم يخطر ببالك ان الانسان يخاف من الانفراد ؟ وان غريزة القطيع تدفعه ليقرب من غيره من الناس ، حتى من الذين لا يعبأون به ؟ فتراه يحاول ان يميت حواسه باستعمال كلمات غريبة ، والاتصال بأناس غرباء ، والشعور بانفعالات غريبة ، بل يلجأ الى صوت الموسيقى التي ينصت اليها وهو في الحقيقة لا يسمعها ، بل يلعب الورق ، او يلهو بالالعاب الرياضية ، او بالكتب او بالمجلات ؟ انه يعرف معرفة جيدة انه انما يفعل ذلك لكي يهرب من نفسه . إذ عندما يكون وحيداً ، يتقدم الانسان الباطني ويبتدىء يهمس بغرابة ، فيذكره بالايام السالفة التي لم يكن لها ظل من الحقيقة ، وبالرغبات التي قهرت والتي لا تزال فعالة والتي تحنّ الى ان ترضى وتشبع . هو إذن لا يريد ان يرى الانسان الباطني ، فهو يغمض عينيه وقد اخذ منه الخوف كل مأخذ

كما فعل (دوريان جراي)(١) عندما شاهد صورته بعد سنوات عديدة.

ومع هذا فعلى هذه النظرة الباطنية يتوقف خـــلاص الجنس البشري بل مستقبله. إذ قبل ان نحكم ماذا يمكن ان نصير يومـا ما، يجب ان نعرف بادىء الامر ما نحن عليه، ولن يطول الزمن بالانسان الباطني ليطلب منا حقه — حقه في ان يسمع ويعترف به. ونحن اشد حاجة الى الحرية (الباطنية) منا الى الحرية (الظاهرية). ولا بد من فتح ابواب السجن. فالكره، والوشاية، والحسد، والفسق، وجميع ما في (علبة بـاندورا)(٢) (Pandora's box) من المساوىء يجب ان تظهر، حتى يستطيع الرجل الشريف ان يحاربها ويقهرهـا. هكذا فقط تتمكن الانسانية من الارتقاء. يجب ان يتحرر الانسان الباطني وان يؤخذ بيده الى الذرى الواضحة للمثل العليا.

---

(١) دوريان غراي بطل رواية للكاتب الشهير اوسكار وايلد. كان مثال الاخلاق الفاضلة، وكان جميلاً جداً ولكنه اخذ ينحط اخلاقياً فصار يشعر بان رسمه اخذ يتغير فلم يعد يستطيع ان يتبين رسمه، اذ صار يرى فيه انسانه الباطني.

(٢) هي هدية زفس الى باندورا اول امرأة فانية، احتوت العلبة على جميع الشرور الانسانية وقد فتحها ابيميثيوس خطأً وبلا ترو، فطارت جميع الشرور، وفي رواية اخرى ان العلبة كانت تحتوي على جميع البركات الالهية ولما فتحت انتشرت هذه البركات وضلت، ما عدا الامل، الذي بقي في اسفل العلبة. والقصة من الاساطير الاغريقية.

الفصل الثانى

العمى الارادي

نشاهد في المصابين بالهستيريا(١) مظهراً غريباً ندعوه بـ « تضييق النظر » . فاذا طلبنا من شخص سليم ان ينظر الى نقطة معينة ثم احضرنا قرصاً صغيراً ابيض وقربناه اليه من جميع الجهات حصلنا على مجال بصري ندعوه « بالمجال المحيطي » فيرى بعضهم القرص الابيض من مسافة بعيدة في حين لا يراه الآخرون الا من قريب .

فالنتائج (المحيطية) المختلفة التي يحصل عليها الاشخاص المختلفون لا تتوقف على قصر البصر او مده عندهم ، لان هذه النقائص يمكن تلافيها باستعمال النظارات . والنتائج التي نحصل عليها تختلف ايضا باختلاف اللون المستعمل . فقد يكون المجال لبعض الالوان اوسع من غيرها . ومن الغريب ان المجال البصري للمصابين بالهستيريا يكون عادة محدوداً جداً .

---

(١) الهستيريا حالة تطرأ على الشابات بالاكثر وتنشأ من تكاثر المؤثرات والمهيجات وعدم وجود او فقدان الافرازات او المنافذ للغريزة الجنسية . اما النورستينيا فتنشأ من عدم تناسب بين الافرازات والمؤثرات ، مثال ذلك العادات السرية ، التي تسببها النورستينيا .

على ان تفسير هـذا المظهر الغريب جاء متأخراً . فقد كان « جانت » (Janet) اول من اشار الى ان تحديد المجال البصري هذا . هو التعبير الرمزي لتضييق أفق التفكير الذهني . فان المريض العصبي (النفروز) تتملكه (فكرة محدودة راسخة ثابتة) وهي وان لم تكن وهماً إلا انها تتملك جميع رغباته العاطفية وتستولي عليها . وقد وصف العالم (ورنيك) (Wernicke) هذه وصفاً أليق « بالفكرة المبالغ فيها » وهي التي يوصف فيها العصبي (النفروز) بأنه ينظر الى نفسه باستمرار في مرآة ذاته . ولكن مجال بصره يتصل بذاته في بعض نقاط فقط .

إن هـذا التفسير البديع لا يمثل الحقيقة بأجمعها . فمما لا شك فيه ان العصبي (النفروز) لا ينجح في اتخاذ نظرة واسعة الى العالم . فهو يزيد ويبالغ في قيمة شيء من الاشياء في حين يهمل شيئاً آخر وينتج من هذا ان يصبح مجال بصره محدوداً جداً . وليس هذا لانه يستمر في النظر دائماً في نقطة معينة في ذاته بالنسبة الى ما يحيط به في بيئته بل لان هناك ايضا بعض المدركات ، والحقائق ، والنتائج التي لا يرغب في رؤيتها ، والتعرف اليها . فهذه الوضعة الاجبارية التي يضطر معها الى النظر في ناحية خاصة والتي يبقي بصره مثبتا فيها ، لا تنتج عن الرغبة في الرؤية بقدر ما تنتج عن (العمى الارادي) .

وليس هـذا بالمظهر الذي يدعوه فرويد (بالكبت) ، لان فرويد يفترض ان هذا الكبت يبعد الافكار المكدرة الى «اللاشعوري». ولكن هذا العمى الاختياري لا عـلاقة له البتة باللاشعوري . « فاللاشعوري » يستلزم (عـدم قدرة على الرؤية) وهذا هو المعنى

الحقيقي (للكبت) . فالعمى الارادي مهما قلنا فيه ، لا يمكن وصفه باكثر من انه (شعوري بعض الشيء) .

وقبل ان ابحث بحثا كاملا في المظاهر المختلفة للعمى الارادي ، أحب ان أقدم مثلا بسيطا لهذا المظهر العجيب ، ومن الغريب ان علم النفس قد اهمله حتى الآن . ذلك ان امرأة شابة كانت تشكو اعراضا عصبية مختلفة منذ اشهر معدودة وقد جاءت الي وحيتني والدموع تنهمر من عينيها قائلة « انني سعيدة جداً . ان زوجي رجل طيب » . وسالت عبراتها على خديها ، وتضاعفت نوبة الفرح التي هزتها ، وانفجرت في النهاية في نوبة من البكاء دامت بضع دقائق . وحاول زوجها الشاب ان يسكّن من غضبها بقبلاته الناعمة ، ولكنه لم يفلح . وامسكت بيديه وقد تشنجت وتوسلت اليه بأن لا يتركها ورمت بنفسها بين ذراعيه ، ولم تجد إلا هناك ، بالتدريج ، اطمئنانها المرغوب .

لا يسع اي عالم بسيكولوج حقيقي ان يعتبر تلك الدموع دموع فرح نقية خالصة . فالذي يكون مسروراً لا يكون ابداً عصبيا . وليس في مقدوري ان اظل اكرّر هذا القول مراراً . ذلك لان الاعتراف بمصائب المرء في جميع نواحي الحياة يتطلب شجاعة فائقة . فهناك واجبات للسرور كما للحزن ، والاعتراف بالجميل والانتقام الخ . فالعصبي (النفروز) هو عادة ذلك الفرد الذي يرفض ان يرى مصائبه ولذا فهو يجرّب محاولا ان يعيدها ويرجعها الى بعض الآلام الجسدية . فتراه يقول لنفسه . « آه ليتني لم اكن ذلك النوّام الردي. »

او « آه ليتني لم اكن ازعج بسوء الهضم هذا المتعب » — « اذن لكنت اسعد مخلوقات الله » . وتكرّر مثل هـذه الاقوال باشكال مختلفة لا نهاية لها .

والشابة التي كنا نتكلم عنهـا كانت من هذا النوع . فما هو الشيء الذي ترفض ان تراه ؟ ذلك هو انها غير مسرورة ، ذلك هو انها قد اخطأت في اختيار زوج لها ، وقد اصرّت على اختيارها ، بما عرف من العناد الكلبي الذي تتصف به البنات المصابات بالهستيريا ، وكان ذلك طبعا مخالفا لارادة والديها وهم ابعد نظراً منها كما لا يخفى . وقد حاول عبثا والدها ووالدتها ان يثنياها عن عزمها على الزواج ، ولم يتركا حجة عقلية او نقلية إلا اورداها ، ولكنها ظلت جامدة ، بل صرّحت بانها تفضّل الموت على عدم زواجها بمن تحب .

وماذا يستطيع الوالدان المحبان ان يفعلا في مثل هذه الحالة ؟ واخيراً وبقلوب حاسرة اقرّا العقد . ومرّت بضعة اشهر سُرّت بها الزوجة الصبية ، ولكنها ما لبثت ان اصبحت مغمومة ، ذليلة حزينة ، مشغولة البال ، فاستسلمت الى البكاء والنحيب — وصفوة القول انها اصبحت « عصبية » .

نرى الآن اي دافع قوي كان يحدو بهذه المرأة الشابة لان تتشدّد في القول بانها مسرورة في زواجها . فان الذي كانت ترفض رؤيته هو ان والديها كانا على حق في امر زواجها ، على حين انها اخطأت في اختيارها ، وان سعادتها المنتظرة لم تتحقق .

على ان عنادها وكبرياءها منعاها من رؤية ذلك ، ولو رأت ذلك

لكان معناه استسلامها لابويها، واصدقائها، وذويها، وإذن لكان معنى ذلك استرداد كل شيء بل ان تجعل من نفسها موضع هزء وسخرية، وإذن تكون بخست وحقرت ذلك الذي ربحته بعد نزاع مرير عنيف.

ولم تكن عبراتها، عبرات سرور وفرح عظيم — اي نتيجة عاطفة فيّاضة، وهي في اطرافها القصوى تندمج في العاطفة المعاكسة، كلا، فقد كانت تلك الدموع دموع كدرٍ وحزن اعتبرتها هي دليل فرح فيّاض، لانها لم تكن ترغب في رؤية كدرها. ها نحن نرى لماذا تألمت من جميع انواع الاضطرابات في بصرها، مما يطلق عليه الكحّالون اسم الاضطرابات «العصبية». فجميع الاشياء اخذت تظهر فجأة وكأنها تصغر وتزداد غموضا، فتتلاشى كما لو اكتسحتها روح شريرة مسحورة. هكذا اضمحل حبها، وآمالها، بل كل شيء كان يرمز الى نور الحياة في نظرها تلاشى، فأصبحت حياتها على وتيرة واحدة مملة.

ان المجال البصري المحدود لهذه المريضة دلّ على انها لا ترغب في رؤية العالم الواسع وما فيه من المسرات المنتظرة. فقد شخصت ببصرها نحو سرورها الزائل كأنها ظنت بأنها ستحتفظ بذلك السرور كلما ادامت تحديقها فيه.

ومن المؤسف ان هذه السيدة ليست الممثلة الوحيدة التي تمثل لنفسها مشهد سرورها العظيم. فهناك اناس لا يعدون ممن يرجع كل اضطرابهم العصبي الى العمى الارادي، والذين يسعون سعياً حثيثاً الى ايجاد عامل مشتت لكي يتجنبوا الاعتراف بحقيقة خاصة. ولما

كان من المستحيل ان اذكر هنـــا لضيق البحث جميع الاعراض لتعددها، او ان الخصها في بعض الصور، لذا سأختار بعض الانواع المفردة التي تصف هذا المظهر العجيب.

هناك طريق آخر يستطيع المرء بواسطته ان يتجنب نقطة بحث خاصة، عـــدا عن تضييق الافق العقلي الذي وصفناه فيما سبق. فان العكس ايضاً، اي توسيع الافق يمكننا من اهمال ما يقع اقرب ما يكون الينـا. اعرف اناساً يظهرون رغبتهم واهتمامهم بكل شيء. ونهارهم قصير جداً فلا يتحمل جميع رغباتهم. وحياتهم تشبه دوّامة الماء التي لا تعرف الوقف. فهم يأخذون على عاتقهم القيام بأي نوع من العمل مما يسليهم ويشتت انتباههم، ويمشون مع مسراتهم ولهوهم ويملأون النهار بعشرة اضعاف ما يستطيع النهـار ان يتسع له. ويخشون ان تمر بهم ساعة فراغ — ساعة تترك خالية للفـكر، فكأن الضجر لا يحتمل. وفي الحقيقة، انهم انما يخشون فقط ان يفكروا في ما لا يرغبون التفكير فيه، اذا لم يكن لديهم فيض من عوامل التشتيت. ينتمي الى هذا النوع من العصبيين (النفاريز) الموظفون الذين يفيضون نشاطاً فيأخذون معهم الى البيت ملفات(١) اعمالهم، والذين يرهقون انفسهم بتحمل جميع انواع الاعمال الاضافية. ومـــا يشبه هذا النوع الذين يقرأون وهم يمشون، او الذين يرون في القطار او في الحمام وهم يحملون كتاباً في يدهم، بل نجد ما يشبه هؤلاء المتعصبين بين الجماعين، وفي عالم الموسيقى وفي عالم الادب، وفي الذين

---

(١) اضبارات.

يرتادون المقاهي، والمقامرين، والسكيرين، فجميع هؤلاء قد — اقول بالاخص قد — يكونون هاربين من الحقيقة .

لهذا نجـــد الخوار العصبي الجدّي انما يحدث عادة بعد مرض او اجازة ، وهذا هو السبب ايضا في ان ايام الاحد هي ايام عذاب لا راحة ، عند العصبيين (النفاريز) . ان مغزى المرض واعتباره سببا للخوار العصبي لم يقدر تمام التقدير الى الآن . ما اكثر ما نلوم صدمة العملية، او خور القوة، او تسمما من جراء عدوى، في حين ان السبب الحقيقي هو الراحة التي فرضت علينا فرضاً . هذا رجل امر ان يلزم فراشه مدة اربعة اسابيع لم يتمكن قبل ذلك ان يفكر متأملا في نفسه وطراز حياته ، وقد منعه الطبيب من ان يقرأ ، او ان يستقبل الزوار لانه حُظِرَ عليه ان يتكلم كثيراً . وهكذا نرى ان افكاره التي كانت حتى الآن مشغولة بشيء ما ، اصبحت مع شيء من التهيئ تهتم بالناحية الروحية من حياته . فتبدأ بعض المدركات تتسرب الى شعوره مما نجح في الماضي من تنحيتها ، ويبتدىء متأملا في الذي آمله من الحياة ، وماذا منحته هذه الحياة فعلا، ويبتدىء يرى فشل آماله المريع. وهو امر يجب ان يجابهه كل رجل شريف امام محكمة شعوره . لقد كان حتى الآن ضريراً، وها هو ينهض من فراشه وقد عاد اليه بصره فاما ان يحارب بشجاعة كل مناله المربر ، او ينهض وقد تغير وتعافى جسداً وذهنا ، او ينهزم ويلتجيء الى مرض نسميه بال « نيوروز » وليس لهذا المرض اية علاقة بالعصب كما يظن عادة .

فهو يحتاج الى تحويـــل جديد في اتجاهاته لكي يحفظ لنفسه

(عماه الارادي) . ومن اجل هذه الغاية ، يستفيد من افكاره « الجنونية » المختلفة ، ومن ذهوله ، ووساوسه ومن ألمه ، حتى من احزانه الجديدة — وهو يعرف معرفة جيدة كيف يثير هذه جميعها اذا احتاج الى ذلك ؟

ما هي هذه الاتجاهات ؟ يستطيع المرء ان يملأ مجلدات ، ولا يكون قد وفّى هذا البحث حقه . فاحدهم يدوّن عدد النوافذ التي يراها طول نهاره ، ثم يجمعها آخر النهار ، ثم يتصور بأنه اخطأ في حسابه ، فيأخذ في عدّها المرة بعد الاخرى الى ان يسقط نائما من الاعياء والتعب . ويقوم غيره فيقارع طيف مرض معدٍ ، يتولاه النهار بطوله هذا الخوف المبالغ فيه — والذي يختفي وراءه مرض آخر لا يرغب هو في رؤيته . اما شخص ثالث فينغمس في مسألة من مسائل اليوم الحيوية ، اي في (حركة من الحركات) فيصلح ، ويشاغب ويتداخل ، ويقاتل ، ويتألم ، بل يصبح شهيداً ، بطلا او متعصبا ، — بل يجن فعلا — في اعتناق اي قضية من قضايا العالم . اما رابع فيخترع طقسا من الطقوس عند قيامه من الفراش او ذهابه اليه او اثناء النهار — كتلة سخيفة من الانحرافات الشاذة ، يشعر بائسا ، من جراء هذه المحنة في الظاهر ، فيقاتلها ، فيخضع ، او يخضع او ينتصر او يشعر ذليلا ..... ومع هذا فلا يزال في ذلك تشتيت ، لانه لا يرى ما لا يرغب في رؤيته .

ولقد ظهرت الحرب لكثيرين من مثل اولئك الذين يغشّون انفسهم بركة ورحمة ولكن الامر ما لبث ان اصبح لعنة . لقد وجدوا

في الحرب وسيلة لان ينحرفوا انحرافاً كبيراً عن ذاتهم ، او عما لا ترغب الذات في رؤيته . كان هؤلاء الذين كانوا يجدون انفسهم مضطرين الى قراءة « كل » الجرائد — ذلك لان التقارير الموضوعية لجرائدهم لم تكن تكفي — بل كانوا يشترون جميع « الملاحق » فكانوا يلتهمون بتعصبٍ جميع الاشاعات المثيرة للعواطف ؛ وكانوا أول من ينشرها . لقد كانت الحرب الكبرى في نظرهم وسيلة لغاية ؛ بل كانت احساساً بل اتجاهاً من الاتجاهات ؛ فلم تكن في نظرهم مرضاً عصبياً خطيراً ؛ او جنونا اضل الانسانية جمعاء ، او نتيجة مريعة لانقلابات لم يمكن تجنبها ؛ او زوبعة هائجة تهدم كل ما كان فاسداً منخورا .

ومن جهة اخرى نجد اناسا سلبتهم الحرب عملهم الاعتيادي فاصبحوا مرضى لانهم وجدوا وقتا للتأمل والتفكير في حالهم ؛ وهكذا حققوا ما كانوا حتى الآن قد اهملوه ؛ فاذا به الآن يغزو شعورهم . فهم يطرحون اللوم على المثيرات التي سببتها الحرب ويستطيعون بالاجمال ان يبينوا سببا خاصا لمرضهم . ولكن تحليلا دقيقا في حالتهم يبين ان قضيتهم إنما هي قضية « عمى مقصود » صمّموا هم بأنفسهم على الاحتفاظ به . أين التطبيق العملي لهذه الحقائق؟ سؤال يسأله القارىء العملي : كيف استطيع ان اصون نفسي ضد العمى الاداري ؟ كيف اتجنب ان امثّل لنفسي ؟ اعتقد انه يجب ان نربّي من الطفولة على ان نكون صادقين مع انفسنا . يجب ان لا توضع امامنا مثل عليا يستحيل علينا الوصول اليها ؛ حينئذ نستطيع ان نكيّف انفسنا بسهولة على ضعفنا الانساني . ومع اننا نعلم دائما ان نتكلم الصدق مع الآخرين ؛

وينتظر منا ان نحني رؤوسنا احتراما للصدق ، إلا اننا نشاهد عاجلا ؛ بان الظروف تضطرنا عادة إلى ان نكذب فنرى ان الناس ليسوا صالحين جداً ولا هم بالرديئين جداً كما يصوّرون لنا ؛ وان الكذب هو ضرورة من ضروريات نظامنا الاجتماعي . ولذا نجد ان من السهولة بمكان ان نكذب على انفسنا . ولو اظهروا لنا او ارونا صورة حقيقية صادقة للعالم : لما كان الكذب ضروريا . ولو علمنا خداع الحياة ؛ واكاذيبها الكبار والصغار ، والمزاعم ، والروايات الهزلية ، والاعيب الشرفاء ؛ وشرف النصابين ، ويا حبذا لو اعطينا الفرصة لان ندخل في المتناقضات المشوشة ، ولان نشعر بان ضعفنا هو امكان لقوتنا في المستقبل — اقول لو فرضنا كل هذا ، إذن يكون في الامكان ان نربي اناسا يملكون الشجاعة الكافية ليجابهوا انفسهم ، فيرون بان اهم واجب لديهم هو ان يكونوا مخلصين لانفسهم .

من هذا الصدق الباطني ، تنشأ قوى جديدة هي كالينابيع الساخنة ؛ تشفي جروح الحياة ، فتمكننا من ان نزيل ما اصبح فاسداً ، وان نضع امام اعيننا اهدافا جديدة . بل تدلنا على اعادة البحث من جديد ، والى التنقيب والتفتيش ، والى اجراء اختبارات ومشاريع جديدة . وبهذه الوسيلة يعود الذي يتظاهر بالكساح نشيطا فعالا . فالمرء ابداً يسعى الى السرور ، سواء في راحة الذهن التي تأتي من التنازل والانكار ، او من منازعات جديدة وامال جديدة — وهذا امر يتوقف على المزاج وعلى الظروف الخاصة . وإنه لاسهل علينا ان نتحمل اشد مصيبة نراها واضحة ، من ان نتحمل خطباً بسيطاً ، نعمى بارادتنا عن رؤيته .

هكذا نجد ان كثيرين من الناس يستطيعون ان يتحملوا ضربات القضاء القاسية ، في حين يخضعون لوخز الابر ، الذي لم يعبأوا به بل لم يرغبوا في ادراكه وتمييزه . فحتى الكدر ، يجب ان يعتبر عنه في ردود فعل سنّتها الطبيعة . ان الذي عاش حقاً هو الذي في مقدوره ان يموت .

obeikandl.com

الفصل الثالث

الحساسون

العالم بالآمه ومسراته يبقى ابداً هو ذاته لا يتحول او يتغير او يتبدل . ويتوقف كل شيء على نظرتنا الى الحياة وكيف نضع انفسنا بالنسبة اليها . لقد عبّر عن هذه الفكرة تعبيراً بديعا الشاعر (اهلند) في قصيدته المعروفة . فهو يصور لنا شابين يدخلان معترك الحياة . يأتي احدهما الى بيته متعبا منهوكا ويجيب بلا مبالاة على من يسأله ماذا رأيت اليوم فيقول : « لم ارَ سوى احراش ومروج وشمس براقة وسماء زرقاء صافية . » اما الآخر فيقول ما قاله رفيقه ولكن بسرور ، وقد اهتزّت مشاعره ولمعت وبرقت عيناه . نعم رأيت الاحراش والمروج والشمس البرّاقة . ان كل شيء يتوقف على كيفية تحسّسنا باختباراتنا .

وكلما كانت نفس الواحد منا منظمة تنظيما دقيقا اكثر ، كلما كان اختباره للعالم اكثر ثروة وخصبا . هنا يتفوّق الشاعر على غيره لاتصاله بالناس كل يوم . فهو يرى مشاكل الحياة في كل مكان ، وهو يلحظ مشاهد الروايات التي تُمثّل على مسرح الحياة ، وهو يطرب في اطواره المزاجية ، ثم هو يرى كل شيء اوفر ثروة وخصبا ، واجمل بل اتم لونا . وهناك كثير من الشعراء لعل من الافضل ان ادعوهم بالفنانين — الذين لم يخطُوا في حياتهم سطراً او يبتكروا عملا او قطعة فنية . فهم يشعرون شعوراً فنياً وهذا ميزتهم ، بل قد تكون مصدر

عذابهم . فهم اكثر تمتعاً بمسراتهم ولكن عذابهم اشد من غيرهم واعظم . جلودهم ناعمة وهي اكثر حساسية للدغات الابر في الحياة .

من هو الذي لا يعرف «ثخان الجلود» بين الناس ، غلظاء النفوس، ذوي الطباع المتينة في مبناها ، ذوي الضمائر القوية والنفوس المغلفة بالجلود الغليظة القرنية ؟ من الصعب ايلامهم ، ومن الصعب مسّهم ، وليس من السهل زعزعتهم او تغيير اساليبهم . مثل هؤلاء ينامون نوماً عميقاً بل في مقدورهم ان يناموا حيثما وجدوا وفي اي وقت ارادوا. فليس في نظرهم اي طعام رديئاً فلا يؤكل ، او اي شخص لا يصلح ان يكون صديقاً حميماً ، او اي جو قاس كل القساوة . مثل هؤلاء لا يرون احزان غيرهم ، لانهم لا يستطيعون ان ينفذوا الى انفعالات غيرهم من الناس . وهم لا يفهمون غيرهم من مخلوقات الله الآدمية الحسّاسة ، اولئك الذين ندعوهم عادة « بالعصبيين » بل لا يفهمون كيف يمكن ان يكون المرء عصبياً ، بل يحسبون ان مثل هذه الحالة الحسّاسة ليست سوى حالة مزاجية ، او انفعال سيء ، او انعكاس ، او فقدان المقدرة على قيادة النفس ، او فقدان القوة والنشاط . ليس هناك جسر بين عالمهم وعالم الحساسين . ونحن دائماً نلاحظ هذه الظاهرة ، اذا جمعت غريزة الشباب الغامضة المتلمّسة بين اثنين مختلفين في الزواج ، وفي اكثر الاحوال تكون المرأة اكثر حساسية، في حين يكون الرجل اشد بأساً . فينتج من ذلك اختلاف متزايد بين الاثنين ينتهي عادة بأن تصبح الحياة بؤساً وشقاء .

هذا وتتطلب الثقافة ان يسايرها مقدار من الحساسية . بل إنّ

تقدُّم الفن جميعه يتوقف على هذه الحساسية المتزايدة ، فالموسيقيون الحديثون يسمعون انغاماً كانت آذان الموسيقيين القدم تقفل دونها ، والشعر الغنائي الحديث يعرض عن الاثر الغليظ ويرمي الى امتلاك الظلال الناعمة ، والرسّامون ينبذون المباحث الكبيرة ، او المباحث التي تستدعي شجاعة ، او الجبال العالية ، والثلاجات والشلالات ، ويسعون وراء الفروق الدقيقة ، والانغام الناعمة والتغيرات الرقيقة . والروايات لم تعد محشوة بالعمل المبالغ فيه ، بل تحاول ان تُمثل حياة الناس الباطنية ، وان تتقن غير المعقول ، وان تنير الظلمة الغامضة . ولقد ظهر التقدم اكثر ما يكون في التمثيل . إذ نرى المَشاهد تنطوي على حالات تُحتاج الى دهاء ومقدرة ، وتتلاشى الاعمال المبالغ فيها وتحل محلها العواطف التي تحرك السامع لانها تلمس فيه خيوطاً مرتبطة بأنغام متآلفة . وحسبي ان اذكر هنا كثيراً من روايات (Gerhardt Hauptman) التمثيلية ، و (Zwischenspiel) لشنتسلر ، ثم جميع روايات (Maeterlink) وخصوصاً (العصفور الازرق) ثم مؤلفات (إبسن) الاخيرة ، الى مؤلفات (Strindberg) وكثير غيرهم . فحتى الفلسفة تعنى بالحالات المزاجية . فقصيدة (Also Sprach Zarathustra) المدهشة ، لنيتشه ، هي قصيدة احتوت على عواطف زاخرة ، لا يفهمها سوى المفكرين الحساسين . فالانفعال إما ان يحلّ محل الفكر ، او يصوغ من الفكر شيئاً حيّاً .

وفي مقدورنا دائماً ان نشاهد ان الجنس البشري يشتري كل

خطوة في مضمار التقدم ، بتضحيات هائلة غالية . كذلك الحساسية المتزايدة والحياة الخصبة في الرجل المهذب المثقف تتطلب ضحايا كثيرة ، وهي تشترى بالآلام التي يعجز عنها الوصف مما تعانيها المخلوقات العديدة البائسة . حتى ان رجل السوي السعيد مع زيادة حساسيته يكاد لا يتصور ما يتحمله (اشد الناس حساسية) من مثل هؤلاء المساكين . إن هذه الحساسية تتضخم فيهم فتتخذ شكلا مضحكا ، فتصبح هذه الميزة عائقاً لهم عن التقدم وتنقلب السعة الى فقر مدقع .

وقد يستحيل علي ان اصف هنا مبلغ اتساع هذه الحساسية العظيم. فاكتفي بأن اصور للقارىء في سطور قليلة شيئاً عنها . فهنالك اناس تكون بعض حواسهم او جميعها مفرطة في الحساسية . فاقل صوت يؤلمهم ، وتملأ جلبة المدينة قلوبهم خوفا ، بل تخيفهم ضجة النقليات في المدينة وصفير سائقي الترامواي ، ودق الاجراس ، بل مجرد النداء او الكلام او الصراخ . ولا يستطيعون النوم إلا إذا خمدت الاصوات . فيضعون في آذانهم آلة تلطف من حدة الصوت بل تزيله ، ويغطون الابواب بأغطية لتخفيف صوتها ، وينفرون الى القرى في اهدأ بقاع المعمورة ... ومع هذا فلا يجدون راحتهم المنشودة . ذلك لان حساسيتهم ليست حقيقية بل كاذبة فهم يستعيضون بها عن السماع . والحقيقة انهم إنما يخشون تمتمة صدورهم ، إذ لا يريدون ان يصغوا الى اصوات ضميرهم وهم انما يفرون من انفسهم . ان مثل هؤلاء يتألمون من سماع اصوات غريبة تدوي في آذانهم بل من رنين او طنين او دق مستديم يشبه دق الاجراس .

وهناك من هم على العكس، ممن لا يشعرون بالراحة الا في وسط جلبة الشوارع، فاذا وجدوا في حالة سكون، عجزوا عن تحمل اصواتهم الباطنية، في حين يكاد يتناولهم النعاس في القطـــار او بين اصوات المدينة. وهكذا فلكل شيء وجهتان في حياة الانسان، بل ان الحياة بأجمعها « ثنائية القطب ».

وهناك من يتحسسون للنور البراق فيلطفون نور النهار، بما يضعونه عـــلى النوافذ من الحجب والحواجز، وعـــلى عيونهم من النظارات السوداء، ويتجنبون الاماكن الشديدة النور. (ان التمتع بشدة النور هي عادة حديثة سيئة ستعود بالضرر الاكيد على عيون افراد الشعوب المتمدنة) وهؤلاء يشعرون بالراحة في الظلام او عند الفجر، مثل هؤلاء ايضاً يسلكون سلوكا رمزيا. إذ هناك بعض الحقائق مما لا يرغبون في رؤيتها. وقد عرفت سيدة شديدة التـــأثر بلغت حساسيتها للنور حداً يكاد يكون اضطرابا عصبياً في الرؤية — اي اضطرابا في التكيف البصري كما بيّن ذلك طبيب العيون الذي اشتشارته. فلم تعد تلك المسكينة تستطيع القراءة، وهـــكذا حرمت نفسها من لذتها الوحيدة وانقطعت عن العالم. وقد أبت ان ترى شيئاً واحدا، وهو انها كانت لا تحب زوجها، ولم تكن تستطيع ان تتحمله فصارت حياتها معه عذابا بل جحيما... وهكذا تمكنت بهذا الاضطراب البصري ان تعيش عيشة زوجية سعيدة في الظاهر. وقد حاولت عبثاً ان تكيّف نفسها على زوجها، وانكرت طبيعتها الحقيقية ولكن اخذت حساسيتها تتضاعف سنة بعد اخرى في حين ظل زوجها كما هو رجلا شديد البأس يتشح بوشاح من الرضى النفسي الذاتي.

وهناك ايضاً حساسية للتذوق واللمس وبخاصة للشم . فبعضهم يتأثر كثيراً بالروائح الكريهة . فالمرأة التي تعجز عن محبة زوجها تجد لفمه بالاخص، رائحة مزعجة مثيرة مما يجعل قبلاته لها تضحية اي تضحية من قبلها . بل يصبح قربه منها امراً غير مقبول .

ولكن هذه الحساسية التي وصفناها هي جزء من جحيم يتألم منه الحساسون . إذ لا بد من وصف جميع نواحي حياة اولئك وصفاً تاما لنرسم للقارىء صورة جلية لما يعانيه الحساسون كل يوم .

يخرج الواحد منهم من بيته فيشعر بان الجموع التي تحيط به تذله ، فيعروه انفعال مزعج لاعتقاده ان الناس يرقبونه ويهزأون منه . بل يضحكون منه ضحكا غريباً وينظرون اليه نظرة غريبة . اما هو فقد اهتم اهتماما خاصا بهندامه قبل مبارحته البيت ، كيلا يصبح موضع هزء وسخرية . لكن كل ما يحيط به مغلوط . فربطة الرقبة لا تناسب البدلة ، ونعله يحدث صوتا ، وقبعته كبيرة جداً لا توافقه وهو ايضا لا تبدو عليه علامات الصحة والعافية بل هو يجتاز يوما من « ايامه السود » . ما اشد ما يراقب كيف يسلم على الناس وكيف يردّون عليه السلام . ففلان لا يراه مع انه يمر به ، ولا شك في ان هذا السلوك مقصود من السيد (أ) وهو اهانة عظمى . اما فلان (ب) فقد رفع قبعته بعض الشيء ، مثل هذا يدل على عجرفة و كبرياء ولذا لن يعترف بشخصية فلان مرة ثانية . ويأتي آخر فيسأله عن حاله . وهذا لا شك قد لاحظ ان ذلك اليوم من ايامه السود وإذن فهو يهزأ منه . وآخر يبتسم ابتسامة حيث لا يستطيع ان يخفيها . هكذا

ينقضي النهار بطوله ، فالناس يتعمدون اهانته وهو يتعرض للازدراء أنّى توجه .

ثم يأتي شخص آخر الى المطعم فيختار مكانه بسرعة دون عناء ، اما صديقنا الحساس فاختياره مكانه امر عظيم مشكل . إذ يجد ان الخدم يعاملونه بازدراء مع انه يدفع لهم (حلوانا كبيراً) لكي يخدموه . ولكنه إذا لم يحصل حالا على طعامه ولم يترام الخدم عليه شعر حينئذ بانه قد اهين ورأى برهانا جديداً بان العالم ليس سوى مكان ذل واستعباد .

لا نستطيع ان نغرق في الحذر عند تحدثنا مع اولئك الحساسين ، فانهم يجدون ابداً اسبابا جديدة لاهانتهم . دعنا الآن نتصور مثل هذا الشخص وقد تزوج من سيدة تختلف في تركيبها الذهني عنه . او خذ مثلا خيراً من هذا : تصور لنفسك شخصين حساسين متزوجين ترَ ان حياتهما تصبح جحيما على هذه الارض . فكل منهما ، يشعر بانه قد اهين وهو لهذا ينتظر ان يرى الآخر خطأه فيطلب العفو صاغراً ذليلا . وتنتهي هذه المنازعات الدائمة التي لا يعقبها انتصار بان يضمحل الضعيف منهما ، وهو الذي يعترف بانه كان مخطئا من اجل السلام . غير انه يتراجع عن هذا المركز حالا ، عندما يتعافى من هذه الحالة العصبية المقهورة .

يكفي ان نكثر من هذه الاوصاف المحزنة ، فاهم من هذا في نظري ان تتمكن التربية المعقولة من ان تمنع هذه الحساسية الزائدة . وهنا لا بد لي من ان اشير — كما اشرت سابقا — الى النقص الكبير في

في تربيتنا فهي المسئولة عن تخريج اولاد بؤساء ذوي نفوس كسيحة. فان هذه الحساسية تُنمّى نمواً نظاميا في ايامنا هذه ، اذ يسمع الطفل دائما بانه يتوجب عليه ان يخجل من نفسه. وامثال هذه العبارات المألوفة تتردد في اذنه « ماذا يقول الناس عنك اذا سمعوا هذا منك » او « يا للعار » او « ماذا تقول عمتك برتا او عمك برني عنك » . او « يا للخجل ما هذا السلوك ؟ ألا ترى ان جميع الناس ينظرون اليك ويضحكون منك » . ويوصف بعض الاطفال بانهم « لا يهتمون بشيء اهتماما قلبيا » او « انهم ينظرون الى الامور نظرة سطحية » او « انهم لا يشعرون الخ » هكذا يثار الشعور المتزايد وخصوصا في العائلات التي يقل اولادها او تكتفي بولد واحد . ويكاد الوحيدون ان يكونوا اطفالا حساسين. فينشأون ثم يصبحون رجالا حساسين.

هكذا انتقلنا من تقدم الثقافة العالي الى مبادىء التربية . ان الحياة تهتم ببقاء الاصلح فانها تمر عن الحساسين المفرطين — الا اذا لجأ هؤلاء الى الوحدة او الى فن من الفنون . وفي هذه الحالة تُحولهم الى مخترعين لقيم جديدة او لمدركات جديدة .

وهكذا ندون والعجب يأخذ منا كل مأخذ — ان الانسانية جميعها هي محاولة الطبيعة لان تنتج شخصا عظيما يتمكن من ان يعمل حتى من الصغير عظيما ، وعندئذ نفرح بحساسيتنا ونفتخر بأن نشعر ان الحياة انما هي منحة عظيمة .

الفصل الرابع

اقنعة البـــاعث الجنسي

ذكر لنا بلوترخ قصة عجيبة عن الامير وريث انطيوخوس السوري. فقد وقع سلوقس مريضاً مرضاً مزعجاً هدّ قواه فلم يوفق الاطباء الى اكتشاف علة المرض ، فاحزن ذلك اباه كثيراً . وقد توفق الحكيم الشهير ارسستراتس بنظره الثاقب الى اكتشاف السبب الذي انهك قوى الامير فكان عشقه لامرأة ابيه الملكة الجميلة ستراتونيس . غير ان بلوترخ لم يذكر لنا ان الامير كان يشعر بحبه هذا . والذين يعجبون كيف نحب ونجهل اننا نحب لا يعرفون ان الحب يتغلغل في زوايا سرية بل يجهلون آلام الحب وآماله . وقد تمكنت ان ابين مراراً كيف يمرض بعض الناس بامراض مقنعة والحقيقة انهم احبوا ورغبوا دون ان يعرفوا عن ذلك شيئاً . قال جرلبارزر « كل قلب له اسراره ، يخبئها بشغف حتى عن نفسه » وكثير من الامراض التي نعجز عن تعليل اسبابها انما هي في الحقيقة حب مقنع ، كما ان فقدان المقدرة على الحب روحاً وجسداً قد يكون ايضاً حباً مقنعاً .

جاءني يوماً شاب وشكا لي انه اصبح عاجزاً عجزاً تاماً عن ان يحب . ولم تكن النساء لتؤثر فيه شيئاً في حين انه كان قبل ستة اشهر يميل اليهن ميلا عظيما ولم يكن التقشف والزهد من طبيعته . فعرفت

حالا ان ما اعالجه هو حب سري اضطر صاحبنا ان يضغط عليه لانه لم يشأ ان يعترف به ، وانه كان لديه هدف جنسي عجز عن الوصول اليه ، الامر الذي لم يبق لاي محبوبة قيمة في نظره . فكأن المنطق السري لقلبه كان يدفعه الى ان يقول « إما هذا او لا » . وقد انكر هذا الشاب ذلك في البدء . ولكنه عاد اخيراً فاعترف بعد ان ضايقته، بانه كان مولها بابنة عم له، غير ان حبه هذا زال بالمرة منذ ستة اشهر . واسمع ما جرى له : كان هذا الشاب طالب طب ، وكان والداه يرغبان في تزويجه من فتاة غنية . وكانت حالته المالية سيئة فكان مجبراً على العمل واعطاء دروس خصوصية ليعيش . ولكن طراز حياته هذا كاد ينتهي لان صهره المقبل وعد ان ينفق عليه عن سعة الى ان يتخرج في كليته بل وعد بان يستمر على مده بالمال ليتخصص في فنه بعد الانتهاء من دراسته . غير ان هذه الخطة حالت دون محبته لابنة عمه الفقيرة . ولكن ارادته كانت حديدية. ان ضعف الارادة المزعوم في ذوي الامزجة العصبية امر خرافي ، فان هناك من اساء استعمال ارادته فظهرت بمظهر الضعف . اذ اجبروا انفسهم « على ان لا يجمعوا على شيء » وهكذا نسوا كيف يستطيعون ان يقرروا القيام بأي عمل ما . اما انهم يقدرون على ان يريدوا شيئاً فلا قيمة لذلك عندهم فما يرغبون فيه يقع تحت ما تمنعهم ارادتهم عن القيام به ، وقد قال صاحبنا الشاب لنفسه : « لا تجرؤ ان تحب ابنة عمك بعد اليوم ابداً » ، ومن العجيب انه لم يحبها بعد ذلك. وانطفأ نور الحب عنده منذ تلك الساعة . اي انه في الحقيقة لم يكن يحب سوى

ابنة عمه وقد اعترف صراحة بأنها كانت تشغل جميع احلامه. وصفوة القول انه كان يقضي حياته الجنسية في احلامه ، اما ما تظاهر به من عدم مبالاته فلم يكن سوى قناع لرغبته التي اساء استعمالها وكان عليه ان ينكرها طمعاً في المال .

وهكذا فقد كشف هذا الشاب عن طبيعتين طبيعته الظاهرية اللاجنسية وطبيعته الباطنية الجنسية احداهما جامدة باردة والاخرى حارة عاشقة ، احداهما تعبة في الحياة والاخرى متفانية في الحب. ما اقل الناس الذين تشبه طبيعتهم الباطنية طبيعتهم الظاهرية !

يذكرني ذلك بقصة رسم (دوريان غراي) للكاتب الانكليزي الشهير (اوسكار وايلد) التي يظل فيها بطل الرواية دوريان فتى يافعا مرنا جميل الصورة ، ممثلا حياة في حين تدل معالم وجهه على ما فعل الزمان والشهوات به . غير ان رسمه لم يكن سوى رمز للانسان الباطني . يقول هبّل « الرجل كالبسيلسك(١) يموت ان رأى نفسه الباطنية » . وهناك خرافة شائعة في كثير من البلدان تقول ان الذي يرى انعكاس رسمه في الليل يموت . وربما كانت الخرافة عن رأس (المدوزا(٢)) ترجع اصولها الى « الخوف من الطبيعة الباطنية » .

---

(١) حيوان خرافي من الزواحف تفقسه الحية من بيضة الديك .

(٢) احدى الاخوات الثلاث ، في الاساطير (اليونانية) شعورهن حيات ، ومن نظر اليهن انقلب حجراً . ومدوزا هي الاخت الفانية الوحيدة قتلها فارسيوس ووضع رأسها على ترس اثينا .

واي رغبة مثارة تختبيء خجلة من نور النهار اكثر من بواعث الحب . ان العالم جميعه مضطر الى ان يقنّع نفسه من الوجهة الجنسية. ولا يتناول كلامنا هذا الاقنعة التي نضعها ونحن نشعر بأننا نغش بها غيرنا. ولكن همنا ان نرى كيف يقنع الناس انفسهم من انفسهم فيختبيء باعث الحب الجنسي وراء الامراض الجسدية .

للحب ثلاثة اقنعة مهمة : الحياء او الخجل ، والشوق والاحتقار . ويطول بنا الحديث ان حاولنا ان نبين بسيكولوجية هذه العواطف بالتفصيل وقد يكون اوضحها الخجل .

ان الانسان الطاهر كل الطهارة اي الذي ليس لديه اية فكرة جنسية لا يعرف ما هو الخجل ، فالخجل إنما هو اعتراف بالغريزة الجنسية .

والذي يخفي باعث الحب هو الذي يخجل ، وليس احمرار الوجه سوى بعض اشكاله . والذي يقدر ان يحمّر وجهه خجلا يثيره اقل مهيّج . وما العفاف بالاكثر سوى اثر من اثار القهر والضغط ، وهو من ثمار المدنية . وليس الاحتقار سوى رغبة نعبّر عنها تعبيراً سلبياً. والخوف يقف حارساً يحمل سيفاً من نار يحرس باب الجنة فيمنع دخول المرتجفين الذين يتعطشون الى ارتشاف اللذة والسرور .

والآداب العامة على حد تعبير (سيمبليسموس) « هي الخوف من حصول شيء ما » . إنما منشؤها فالخجل والشوق والاحتقار معاً . وما اسهل ان نبين علاقة ذلك بالاحتقار . وإذا كانت الملكة حنة قد

بصقت بادىء الامر في وجه ريشارد الثالث الذي كان يحاول اكتساب رضاها مع انه قاتل زوجها المحبوب ، لكي تظهر احتقارها له ، فان ذلك قد تحوّل بسرعة الى رغبة فيه ، فالاحتقار والرغبة (طرفان متقابلان) وكلاهما يعبر عن القوة ذاتها .

يعتقد (لستنج) ان اسرع شيء في هذه الحياة الانتقال من الخير الى الشر ، لان الخير والشر يكادان يكونان الشيء ذاته، ذلك لان الدوافع الادبية إنما تبنى على الدوافع الاجرامية ، إذ يمرّ خط مستمر في التقدم والرقي من القاتل حتى يصل الطبيب الجراح . والطبيب الجراح في الواقع إنما هو القاتل الذي جهز نفسه لمطالب المدنية ، ثم صعّد بواعثه غير الاجتماعية الى اشكال راقية .

ان جميع ذوي الامزجة العصبية الشاذة يملكون بواعث قوية . وهم في نظري « معاقون » كالقاتل او الفنان. وحياتهم هذه التي تزخر بالبواعث تجعلهم دائما في نزاع مستمر مع محيطهم . فعليهم إما ان يستسلموا الى بواعثهم (وهذا لا يستطيعونه ولا يجرأون عليه) او ان يتسلطوا على رغباتهم فيقهروها . ولما كانوا يشعرون بضعفهم لذا يحافظون على انفسهم من ضعفهم هذا وذلك عن طريق « الخوف » . فكل لهف او شوق انما هو الخوف من الذات ، غير ان المرضى لا يعترفون مطلقا بهذا الخوف الا اذا الجئوا الى ذلك ، وحتى عندئذ انما يفعلون ذلك بالرغم منهم . ولهذا تنشأ عندهم محاولة للتقنيع . لقد بينت في كتابي (حالات الشوق العصبي ومداواتها) وجود اقنعة مختلفة لهذا الشوق . واني اختلف مع فرويد عندما يقول ان

الليبد(١) يتحول تحولا عضويا الى شوق . وان هذا (الليبد) يبدو في علامات واعراض جسدية . واعتبر ان جميع اقنعة الشوق هي اعمال ذات منشأ بسيكولوجي . ولقد وفقت دائما الى اكتشاف وجه الشبه بينهما كما تبين لي من اعراض المرض . وجميع العصبيين يميلون الى تحويل انفعالاتهم الى احساسات . وهكذا فان السيدة التي تكون غير مسرورة في حبها دون ان تعترف لنفسها بذلك تتألم من اوجاع قلبها . كما ان احتقارنا لرجل ما ، قد يظهر في اضطراب في الهضم او في ضعف او عجز او ميل في الدوخة او ألم في الرأس . غير ان وراء هذه جميعها تجد اقنعة لحنين طال امده ولم يشبع . وهكذا ينشأ النزاع البسيكولوجي من جراء ضغط الباعث ومن قهرنا الرغبة ذلك القهر الناشيء عن احترامنا للدينة. وبزداد اضطرار هذا العصبي (النفروز) الى تقنيع ما تثيره الرغبة في نفسه ، ويرفض ان يعترف لنفسه عن رغباته التي تضايقه ، تلك الرغبات الضاغطة التي تعتبر خطيئة خلقية .

والخلاصة يحدث شيء من التفاهم بين الاعراض العصبية والشوق العصبي ، ونشاهد في الحياة الزوجية نوبات سببها الشوق نخيف كلاً منا والذين يعانونها بالاخص . فعند نهاية حلم في النهار بعد ان يكون قد تلاشى من شعورنا او عند نهاية حلم في الليل ، ينشأ فينا شعور بالشوق عميق . فنشعر اننا نكاد نفارق الحياة ، فيأخذ القلب ينبض

---

(١) الليبد هو القوة الجوهرية ، او الغريزة او الميل . ولا تكون هذه القوة جنسية دائماً ، فقد تكون الغريزة جوعاً . وهذه والغريزة الجنسية هما الغريزتان الانانيتان الاوليتان اللتان تولفان اساس معضلة « النيوروز ».

شديداً او يضعف حتى نكاد لا نحس نبضنا ، ويصفر لون المريض ويشعر كأن ساعته الاخيرة قد دنت ويتخلل ثنايا شعورنا بالخوف ، احساسات غريبة عجيبة (طبيعتها لبيدية) مثل حسنا بالخلاص او حسنا بفرح عظيم او غثيان حلو لذيذ. وقد دلت نوبات اخرى عن صورة معروفة كخوفنا من ان نضرب ، فكانت ترجع الى ذات الاصول البسيكولوجية . بل تمتزج الخصلة الاجرامية بهذه الظاهرة امتزاجاً عجيباً فتعرف (بالاجرام غير الفعّال) . فان سيدة كانت ترغب سراً بان يموت زوجها من نوبة صرع ظهرت عليها اعراض خوف مرضي من مثل هذه النوبة . وقد حققت في هذا المظهر ودعوته (بالانتقام العصبي) تظهر فيه الحياة والموت بصورة واحدة . فالفكرة اللاشعورية لعمل غرامي تعمل كموت القانون الخلقي ، ذلك القانون الذي كان دائماً يتحاشى القيام بمثل هذا العمل . فالموت الاجتماعي وفناء جميع الروادع الادبية ، يتحدّان في حالة غيبوبة ، فيجمعان بين الحياة والفناء . ونوبة الشوق تظهر نفسها في درجات مختلفات متفاوتات، في اشكال ملطفة . وقد تجمع بين جميع درجات الشوق من الشعور البسيط بالقهر الى الموت الظاهري ، وقد تبدو في شكل ضربات القلب في الليل او في النهار احيانا . ونستطيع ان نتبين اعجب هذه الاقنعة في القلب على الاخص .

وهناك بنات يتألمن من اوجاع شديدة في قلوبهن . فمثل هؤلاء قد غيرن انفعالاتهن الى احساسات، فهن غير مسرورات في حبهن ولكنهن لا يعترفن بذلك لانفسهن . ولقد شاهدت اشكالا عجيبة من هذه

الآلام في القلب ، فمن ذلك بنات كن يعشقن رؤساءهن، وطالبات كن يحببن معلميهن ، ورجالا يحبون نساء اعز اصدقائهم ، وكان لكل واحدة من هؤلاء دوافع خاصة لاخفاء اسرارهن عن انفسهن . غير انه كان لا بد من اظهارها بشكل رمزي إذ لم يكن هناك بد من ايجاد منفذ لهذه الدوافع مهما كان . وليس هذا مجرد كلام ولا هو من قبيل تداعي المعاني المصطنعة كما يظن كثير من النقاد. ونحن في الحقيقة نحوّل هذه المجاري العصبية الى القلب . فلنا « قلوب كبيرة » ولنا « قلوب رقراقة » و « قلوب توّاقة » . ومثل هذا الشوق العصبي قد يظهر نفسه في اشكال اخرى في القلب . فيكون ذلك في خفقانه او في اخراج اصوات خافتة فتظهر كأنها لم تجد لها مكاناً في الصدر ، او كأن ضربات القلب غير منتظمة او كأن القلب يكاد يقف . و كذلك تقنّع الغريزة الجنسية نفسها في اضطرابات تظهر في اعضاء التنفس فما يعرف « بضيق التنفس العصبي او الربو العصبي » وفي التنهدات الدائمة التي تدل على نوع من الحنين ، ويأتي مع ذلك ما يعرف « ببلع الهواء » واضطرابات عضوية في نظام التنفس احيانا . وقد اثبتُّ اكثر من مرة ان مرض ضيق التنفس قد يكون منشؤه اجرامياً . كذلك الامر في « حمى الخريف » والرشح فقد يكون مقنعاً كما وصفت ذلك في كتابي « حالات الشوق العصبي » .

لقد سبق واكدت ان الاحتقار يمثل شعوراً سلبياً لرغبة شديدة ، وكم من اوجاع في المعدة ليست سوى اضطرابات عصبية يمكن ارجاعها الى انفعال لاشعوري بالاحتقار ؟ فكثير من البنات اللواتي يمتنعن

فجأة عن اكل اللحوم يملكن في نفوسهن احتقار كلما يمت الى « الجسد » بصلة . ذلك الاحتقار الذي ينقلونه الى الغذاء . وهـــذا المظهر قد نشاهده في الرجال ايضاً ، ولا سيما في بعض المتعصبين النباتيين الذين قد يرجع تعصبهم هذا الى مثل تلك الاصول . وبالطبع فان احتقـار اللحم (الجسد) هذا ، يفسر تفسيراً معقولا ويربط بدوافع اجتماعية او انسانية .

ومثل هؤلاء ينضمون بلا عناء الى الحركات الكبرى والنهضات الهامة ، لانهم يحاولون ايجاد تفسير اجتماعي لصراعهم الخاص . هذا النوع من (استبدال المثل الاعلى) هو القوة الدافعة لكثير من النهضات التي ترمي الى الامتناع عن (الخمور او غيرها مثـلا) والتي تتصل اتصالا وثيقاً بميول التقشف والزهد . وكذلك (طلب الشهرة) فانه قد يخدم (كدفاع ذاتي) عن الرغبات المكبوتة .

ليس في الامكان ان نصف في هذا الكتاب بالتفصيل جميع اقنعة اله الحب بل نكتفي بذكر شيء عام عنها .

ان الاضطرابات المختلفة عند استراحتنا في الليل ، والقلق من جراء عدم النوم ، والارتجافات الليلية والاختقانات ، جميع هذه من الامور التي يجدر بنا ان نبحثها بحثاً مفصلا . فالدوخة التي تصيب بعض الناس اثناء سيرهم في الطريق فيخشون بعد ذلك ان يخرجوا منفردين ، إنمـا تدل على شكهم في انفسهم ، إذ تظهر بمظهر محزن (هو الخوف من الوقوع) وهذه الدوخة تنتج ميـلا الى الوقوع الى جهة اليسار . اي تظهر بصورة رمزية عكس (العمل الصحيح) اي الميل الى اليمين .

والاضطراب العصبي يرضى عن هذه المظاهر الرمزية لان المريض يستطيع فيها ان يبين ضعفه للعالم بالاجمال ولمن يكونون في محيطه على الاخص ، ويتمكن في الوقت ذاته من ان يخفيها . (والاضطراب العصبي هو استبداد الرمزية) . حقاً ما اغرب ما تحجب به بواعث الحب . اذكر مهندساً ميكانيكياً لم يستطع ان ينام مدة اشهر لتفكيره في مسألة ميكانيكية ، واخيراً اكتشف آلة للاضاءة من بعيد ، تمكن بها ان ينير ضوءا بلا اضواء في غرف نائية . غير ان هذا الشاب جهل ان الفضل في اكتشافه هذا يرجع الى حبه لابنة عمه التي كانت تعيش معه في دور واحد في ذات البيت ، وكان يفصل بينه وبين غرفتها، غرفتان وكانت احلامه تدل بصراحة على رجائه بان تحن اليه ابنة عمه فتخابره وتتصل به . فكان يرغب في ان يلهب شعورها مخترقا الجدار الذي كان يفصل بينهما . اما هي فلم تكن لتلاحظ شيئاً من هذا . ولم يكن هو ذاته اثناء النهار ليرغب في شيء من هذا في الظاهر، وكان اختراعه هذا ثمرة جيدة لرغباته المقنعة افاد منه افادة مادية كبرى .

وكم من حوادث القلق في النوم يمكن ارجاعها الى رغبة غير مشبعة ، الى هذا التعطش للحب ! ومن اغرب الامثلة التي صادفتها في مشاهداتي ما يأتي : اخ واخت كانا يتيمين ومتحابين، وكانا ينامان في غرفتين متلاصقتين ويسهدان ليالي عديدة . فكان يصرخ قائلا : « هل انت نائمة يا برتا ؟ فتجيبه : « لا . لا استطيع ان انام . لماذا انت يقظ يا هنري » ؟ .

وهكذا تمر الليلة تلو الاخرى . وقد نصحتهما ان يفترقا وان يعيشا منفردين ، ولم يكن ذلك ليعجبهما ولكنني اكدت عليهما ذلك ، ولم ابين اسبابي لهذا التأكيد ، فكان من نتيجة ذلك ان اصبحا ينامان نوماً عميقا كانا يشتهيانه .

وقد يجد المرء مجموعة غريبة من الاسباب لمثل هذا الارق . فهناك الام التي تسرع كل ليلة الى فراش ابنها البالغ ثلاثين سنة لتمسك بيده مدة ساعة ، عندما يشكو من (نوبة في قلبه) فلا يجد علاجا لذلك إلا إذا اقتربت امه من فراشه وجلست عليه ووضعت يدها على قلبه . وبعد ان منعتُ (رحلات) الام الليلية تمكن هذا (الصغير) من ان ينام نوماً هادئاً مطمئناً طول ليله دون ان يشكو من النوبة القلبية .

وقد يدوم هذا الارق في الاطفال وقد يرجع الى تهيج غريزة الجنس قبل اوانها . ويحاول بعض الاطفال ان لا يناموا ليروا ما يفعله الكبار . هذا وان تغيير غرف النوم في مثل هذه الاحوال يأتي بالمدهشات .

ما اشد تعقد مشكلة الجنس، وما اكثر علاقتها بالدوافع الاجرامية وفي المخاوف المختلفة ! ومن الامثلة الواضحة ما يشاهد من الخوف من ارتياد الاماكن العامة والاسواق التي يتخذ الخوف فيها دور المدافع عن الفضيلة . فيفقد المرضى ثقتهم بأنفسهم ويستعملون هذا الخوف دفاعا عن انفسهم ولكي يحصلوا على حماية غيرهم . فالخوف من القـــذارة المشهور ، إنما هو الخوف من القذارة الخلقية ذلك لان العصر القذر قد اعتبر الطرق الطبيعية (قذارة) .

ومن السهل ان ندرك ان الاضطراب الذي يبدو في الرغبة الالزامية للغسل إنما هو رمز لمحاولتنا تطهير نفوسنا . او ميل الى ان نتطهر من جميع اوهامنا الملوّثة . ومن الضروري ان نتوسع في البحث لكي نصل الى الاسباب الجنسية لهذه المخاوف المختلفة .

ما اكثر ما نستطيع ان نذكر عن انحرافنا عن الباعث الجنسي الاعتيادي . فانك لتجد هذه الانحرافات تتحجب باقنعة غريبة ، ويسهل اكتشافها في اشكال (الفيشية(١) المختلفة) .

وعند اختيارنا مهنة ما ، نرى اثر هذه (الفيشية) يظهر في رغبتنا الواضحة في شيء معلوم ، وهذه الرغبة تقودنا الى اختيار مهنتنا . فالذي يجعل من القدم (صنمه) يصبح نعالا ، او مجبّراً للعظام او من يعالج العظام والاظافر ، في حين ان من يجعل اليد (صنمه) يصبح تاجر قفازات او يقلّم الاظافر او يفتح البخت في الايدي . والمتعطشون الى الدماء الساديين(٢) يصعّدون بواعثهم فيصبحون جزارين او مولدين او جراحين ، او ضباطاً او جنوداً .

وكثيراً ما تكون المهنة قناعاً ليس إلا ، لتتمكن (الفيشية) من التقنّع تقنّعاً فعالا ليسهل استعمالها ، وأتخذُ هذه الفرصة لان اتشدد

---

(١) الفتيشية — هي عبادة الجماد من قبل المتوحشين على انها تملك ارواحاً ذات سلطة روحية .

(٢) الساديون نسبة الى الكونت دي ساد ١٧٤٠ — ١٨١٤ ومنها الحب المعكوس بتعذيب المحبوب .

في القول بان ليس هناك انسان صحيح عادي بكل معنى الكلمة ، فكل منا شاذ في ناحية من نواحي حياته ، ويعتبر فرويد كل طفل « مخلوقا كثير التحوّل ذا طبيعة معكوسة » وهذا الميل لا يُزال بالمرة ، فان الغرائز المعكوسة لا يمكن تصعيدها واعلاؤها جميعها ، ولهذا يظل قسم كبير من هذا الميل المعكوس يعمل في الانسان الصحيح العادي ، فاما ان يرضى (هذه الامور لا تظهر لان الناس يحرصون على اخفائها) او يقنّع فيختفي عن الشعور .

ولقد تمكنت من اثبات ذلك في الميل الغلامي . إذ عندما يتعرف المرء باقنعة الميل الغلامي يعجب لخطورة هذا الحب الغلامي وتأثيره العجيب في الادب الحديث . والنساء اللواتي يعجزن لجبنهن عن ارتكاب خطأ مناف للاخلاق يسرقن شيئاً لا قيمة له ، ولكن سرقتهن هذه هي رمز لارواء العمل الممنوع(١) ، ونرى ان المغزى الرمزي للشيء المسروق يبين عادة طبيعة العمل الغريزي .

(وجنون الحريق) اي الاحراق عن عمد ، ليس سوى قناع على الاغلب . خذ مثلا بارزاً : الخادمة الصبية التي احرقت بيدراً . فقد اعترفت لقاضي التحقيق انها صبّت زيت النفط على فراش صبي السائس ثم اشعلته ، لكنها لم تكن تعلم انها تحب ذلك الصبي ، ولهذا ارادت ان « تلهب » حبه لها .

---

(١) هذا الميل يعرف بالكلبتومانيا اي جنون السرقة . وليس الدافع لهذه السرقة الحاجة .

دعنا من الاقنعة الآن ، فني امكاننا ان نكتب مجلدات عنها . إنما نريد ان ننبّه الانظار الى بعض الحركات الاجتماعية الهامة التي يمكن ان نكتشف وراءها احيانا بواعث غرامية .

لقد تكلمت سابقا عن حركة النباتيين ، وعن الامتناع عن تناول المسكرات . واعرف حادثة في هذه المناسبة لطبيب عزب اسس جمعية لمقاومة الامراض التناسلية . وقد افتتحها بخطاب مدهش في محاربة الدعارة التي كانت تسمّم افكار الشبيبة . فحمل في النادي على اعناق « الشبيبة الناهضة » ، وكان من السهل عـــلى هذا الرجل ان يدعو الى الامتناع والعفة . فقد تبيّن لي فيما بعد انه كان عنينا وكان يحتاج الى ان يكتسي برداء لائق من الفضائل يتشح به ، بل كان يشعر بضرورة ستر ضعفه الفاضح .

ان بين امثال هؤلاء من الذين يتصدون لحماية الاخلاق العامة ويخشون عليها الانحلال ، ويرشدون البوليس الى افراد الهيئة الاجتماعية ، الذين يعيشون في نظرهم بقوانين الاداب العامة ، اقول ان بين هؤلاء نرى اشخاصا من طبيعة غرامية صرفة ، اناس يعجزون او يمتنعون عن اتمام وظائفهم الطبيعية فينشدون الخلاص والطمأنينة الممكنة في الاعلان عن انفسهم .

واذا كان الجمّاع الذي وصفته في غير هذا المكان هو دون كيشوت (١)

---

(١) بطل رواية هزلية — الفها ميجل دي سرفانت بعد خلاصه من الاسر في الجزائر سنة ١٥٨٠ وكتب روايته سنة ١٦٠٥ واتمها سنة ١٦١٤ ملؤها السخرية على تبجح الفروسية في القرون الوسطى .

المقنع الذي يستبدل حريمه بما يجمعه من الادوات ، او الشخص الحانق الذي يجمع رسوما او كتبا غير لائقة ، هو على كل حال شخص يتابع الموضوع باختياره وبنشاط .

وسواء أدرسنا هذا الموضوع من جهة الدوافع الايجابية المتغرضة ام من ناحية الدوافع السلبية ، كالنفور او الكراهية ، فان الحقيقة هي ان ما نسعى اليه هو ذاته . ولو امكننا رؤية ما يجول في اذهان بعض مروجي الدعايات الذين ينضمون الى (لجان المراقبة) لامكننا ان نكتشف اكتشافات غريبة .

اعرف معلم ديانة اخذ على نفسه ان يفتش جميع المخازن التي تبيع رسوما مخلة بالآداب ، ويخبر البوليس عنها ، مما ادى الى فرض رسوم باهظة على اولئك البائعين . وقد جاءني يوما يرتعش وهو في حالة شديدة من القلق فقد كان سلك سلوكا شائنا مع صبية وكان يخشى ان يحال الى المحاكمة .

يذكر لنا (الفردبرجر) صورة عن هذا النوع من الرجال في روايته (هفرات ازنهردت Hofrat Eysenhardt) إذ يصف في كتابه هذا قاضيا في فينا كان صارما عديم الشفقة مع الذين يخالفون الآداب العامة ، وكان يلفظ في شأن اولئك احكاما بربرية لم يسمع بمثيلها . واخيراً وُجد هو نفسه مذنبا في حادثة خلقية لمخالفته الآداب العامة، إذ عثر عليه يوما مقتولا في مكتبه، وقد كتب هذه الجملة « باسم صاحب الجلالة الامبراطور ! ارتكبت خطيئة مميتة وها انا اجازي نفسي بجزاء الموت — الامضاء هفرات ازنهردت — . » ان قسوة احكامه

في هذه الحادثة كانت نوعا من الهرب من رغباته التي كانت تعاوده دائما او ملجأ للشهرة والصيت، بل حماية نفسه من نفسه .

مثل هذه الحوادث تنير لنا السبيل عن الرجل الحديث المثقف كما ينير المشعل الغرفة الظلماء . فان كبت الغرائز الطبيعية الشائعة الآن يجعل من المستحيل على الفرد ان يحارب ميوله المريضة ويقهرها ، بل قد لا يعرف هو نفسه، بانه معرض اليها . فالاحتقار والمقت والحنق لا تعتبر وسائل دفاعية فحسب ، بل هي مبادىء للفضائل . ولا نستطيع ان نحارب هذه الميول المريضة ونتغلب عليها ونحن شاعرون ، إلا إذا اعترفنا صراحة بوجود هذا العدو الداخلي .

ان ميلنا الجنسي هو نصيبنا في الخلود . كم من الناس يقعون ضحايا للزهد لانهم يتطلعون ليروا فيه السلام الابدي ، والخلود ، مقابل ما يضحون به ، يا له من تشويه للحقائق ! لان الذي ينال احتقار الميل الجنسي — ينال الموت بل الفناء في الوقت نفسه . والعالم يضجّ بمثل هؤلاء الحمق .

والحق مع (ويتلز Wittels) عندما يتكلم عن حاجتنا الجنسية ، لان هذه الحاجة الجنسية نفسها هي التي تبعث فينا اعمالا دفاعية ، وهي بوادر عصر ذهبي صحي مقبل . ومن مصائب الحب التي نعجز عن تسميتها والتي لا تورّث ، ستنشأ حركة اجتماعية ، تدعو الى حقنا في ان نحب . هذه الحركة ستطلب الاعتراف بالمساواة الاجتماعية بين الجنسين .

الفصل الخامس

الجمّاع

The Collector

نجد هذا الجمّاع في انواع مختلفة. فليس هناك اي اداة يمكن تصورها لا يصح ان تكون هدفاً لشوقه الشديد الى الجمع. فاذا كان يحب الفن — تراه يجمع الصور، والقطع المحفورة، والآثار القديمة، والصيني، والطبعات الاولى من الكتب، والادوات النحاسية، وإذا كان من ذوي العقول العلمية، تراه يبتدىء بعمل بستان نباتي، او يلتقط الفراش، ويجمع معادن، او نقوداً او بكتيريا او غير ذلك « من الشواذ». او قد يقوده شغفه الى جمع طوابع البريد، او الساعات، او العصي، او المظلات، او الدوي، او الازرار، او البرانيط، او الاثاث، او الاضواء. او حواجز نارية (حواجز توضع بين النار والجالس في الغرفة لمنع الاشعة من الوصول رأساً).

وقد يرتبط جنون هذا الجمع احياناً برغبات غرامية. وفي مثل هذه الاحوال تراه يسعى وراء جمع مشدات او نعال او محارم او مراييل او صدارات او شرائط او جوارب او اربطة او ضفائر من الشعر او كفوف يد او عكاكيز.

وكل هؤلاء الجمّاعين فيهم جنون للجمع، وتتملكهم عاطفة تتولد

من عملية اقتناء الاشياء . ويكون الاضطرار لامتلاك الشيء المحبوب كبيراً الى درجة انه يقود المرء في الاحوال المرضية الى ارتكاب جريمة . والذين لم ينشأوا على الجمع لا يعرفون العذاب والانصباب الذي يتضمنه اكتساب كل شيء جديد . فيبتدىء الجمّاع بتقدير الشيء ثم التفكير فيه ثم التطلع اليه ثم الرغبة فيه ويعقب ذلك نزاع بين الشخص وبين الشغف المتزايد ثم الاستسلام النهائي فالخوف ان يقع الشيء المرغوب فيه في ايدي الغير ثم حتى التملك فتدليل الشيء ثم معالجته وفحصه والانغماس فيه ـ وتأتي بعد ذلك الحالة الذهنية العجيبة التي تتولى المرء في الايام الاولى من امتلاك الشيء . ثم السأم بالتدريج ثم زوال الشيء القديم امام المحبوب الجديد . هذه العاطفة التي يبالغ المرء فيها نحو الشيء المحبوب تنطبق على جميع الجمّاعين . ولا ريب في ان جمّاع الرسوم يجمع صوراً لمشاهير الرسامين كرمبراندت اوفانديك او غيرهما من التي يعلق عليها اهمية عظمى . وبعضهم يحرص على عدم السماح لغيره بفحص الصورة وهي قريبة خوفاً من ان يدركوها ادراكا صحيحا لان الادراك المغلوط ضروري في الجمع كما هو في الحب . وكما ان المحب يبالغ في محاسن محبوبته ولا يرى فيها عيوبا(١) بل يراها كلها محاسن كذلك الجمّاع ، فهو يدعي انه يملك افضل نموذج من نوعه . وانه لا يوجد من يملك مثله سواه . وهذا الاعجاب في ندورة الشيء خاص بكل الجمّاعين ، فهم من هذه الجهة يشبهون الرجل الذي يريد ان تكون زوجته اجمل زوجة .

---

(١) وعين الرضى عن كل عيب كليلة .

ويلاحظ القارىء انني اعلق اهمية على الوجهة الغرامية في جنون الجمع غير انني اعرف مظاهر هـذا الجنون الاخرى . إذ لا شك في ان جامع طوابع البريد يسيح حول الكرة بواسطة طوابعه بل يعيش في تاريخ الطوابع فيعزل ملوكا ويحتفل بالحوادث التاريخية الهامة عند امتلاكه طابعا خاصا . ولـكن مهما قلنا في ذلك فانما كل جمّاع يؤسس (حريما لنفسه) .

ولقد وصف الشعراء بتوسع جنون الجمع هذا . وانني لاكتفي من مئات الامثـلة بمثل للشاعر الفيلسوف كيركجرد الذي كان نفسه جمّاعا . فقد وصف نفسه عنـدما اراد ان يشتري منضدة كتابة قديمة قال :

« لمحت من سبع سنين منضدة للـكتابة في مخزن احد بائعي الاثاث القديم فجذبت نظري . ومع انها لم تكن من النمط الجديد ولم تكن صالحة للاستعمال ، رغبت فيها . وانا عاجز عن وصف العـاطفة التي تملـكتني ولـكنني اظن ان كثيرين قد اختبروا مثل هذا الاختبـار . وكان عملي اليومي يدفعني الى ان اجتاز من باب مخزن ذلك البـائع . فكنت انظر اليها نظرات حب اثناء مروري . ومع الوقت اصبحت هذه الرغبة في تلك المنضدة حادثة في حياتي بل اصبحت رؤيتها احدى ضروريات حياتي ولهذا كنت اغيّر طريقي مراراً لـكي اراها . وكلما زادت رؤيتي لها زادت رغبتي في اقتنائها ، وكنت اعـلم جيداً ان هذه الرغبة كمالية لانها لم تكن تفيدني ولم يكن لي سوى ان اعرف ان شراءها انما هو انفاق ثمنها عبثا غير ان من الغريب ان مثل هذا الشوق

الشديد لا بد ان يجد عذراً . وفي يوم من الايام دخلت المخزن الذي كانت فيه، وبعد ان سألت عن امور كثيرة وكنت على اهبة الخروج، عرضت على البائع صدفة ثمنا بخسا لها . وظننت ان البائع يقبل بطلبي فتصبح المنضدة لي باتفاق عجيب . ولم تكن الدراهم هي التي اوحت لي هذا الطلب بل رغبتي في ان اريح ضميري غير ان محاولتي لم تثمر ولم يقنع البائع واصرّ على عناده . وظللت امرّ من امامه كل يوم وارمق المنضدة بنظرات متتابعات فقلت في نفسي لا بد لي من ان اقرر احد امرين . فاذا ذهبت المنضدة وبيعت اكون حينئذ قد تأخرت كثيراً . ولو تمكنت في المستقبل من ان اعرف مصيرها ، إلا انني لن احصل على الرضى ذاته . ودق قلبي عندما دخلت المخزن للمرة الثانية . فاشتريتها ودفعت ثمنها . وقلت لنفسي هذه هي المرة الاخيرة التي اسرف فيها مثل هذا الاسراف ، ولكنني اشعر اني سعيد لانني اشتريتها فكلما نظرت اليها الآن تذكرني باسرافي ، ولا بد ان هذه المنضدة ستفتح عصراً جديداً في حياتي . ولا يخفى ان الرغبة المعكوسة تظهر كأنها صواب ، وطريق جهنم مفروشة بالقرارات الصائبة .

ووضعت المنضدة في غرفتي ، واخذت اسير امامها ذهابا وايابا ، كما حدث لي في ايام شغفي الاول عندما كنت اسر لرؤيتي اياها من الطريق واخذت رويداً رويداً اعرف داخلها وجواريرها ، ومقاطعها ورفوفها وسررت من كل جهة بمنضدتي » .

ليس لي ما ازيده على هذا الوصف — ولا حاجة بي الى ان اؤكد او افسر شيئا . إذ لا يمكن وصف درجات الشغف باحسن من

هذا الوصف ، ولرب سائل يقول ولماذا هام الشاعر بتلك القطعة من « الاثاث القديم » إذ نرى مثل هذا الشغف في الاشياء القديمة في اناس لم يتجاوزوا سن طفولتهم لانهم يتمسكون بالماضي ، وينغمسون في رغباتهم القديمة في الحياة . ايظلون ابداً اطفالا ؟ ان كل الجمّاعين اطفال ، كما ان كل الاطفال جمّاعون ، وان سرور الطفل بالجمع امر معروف مشهور. فأينا في صغره لم يجمع حجارة، او صدفا اوصراصير او طوابع او نقوداً ؟ وما اقل من حملوا معهم هذا الشوق للجمع في حياتهم ؟ والرغبة في الاشياء المختلفة يتوقف عليها في المستقبل ما نشعر به من السرور عند احتكارنا شيئاً من الاشياء ، إذ نصبح نريد شيئاً واحداً فقط ، ولكن يجب ان يكون هذا الشيء ثميناً جداً ويكون ملكنا طول الحياة . هذا هو النزاع بين تعدد الزوجات او وحدة الزوجات ، وبين فكرة الحريم ، والاخلاص الابدي للفرد .

ان الجمّاع هو (دون جوان)(١) في تخيله وقد يكون في الحقيقة متقشفاً او اشد الازواج اخلاصا . فيستعيض بواسطة « حريمه » اي ينقل ميوله الى تعدد الزوجات في اشياء لا تضر ولا تنفع. يلاحظ هذا بالاخص في الجمّاع الشاعر بعشقه اي «الفتيش» ـ الذي يعيش عيشة تقشف ويرفض فكرة الزواج ، إذا استطاع ان يكون عنده «فتيشه» فيجمع نعال

---

(١) بطل رواية للورد بايرون نشرها بين سنتي ١٨١٩ — ١٨٢٤ . قال عنها بايرون « سيُعرف دون جوان بما قصدته ان يكون هجواً لمساوىء الحياة في المجتمع لا ثناء على الرذيلة » .

السيدات ويختبر جميع حالات الحب العاطفية ، ويهتز منفعلا كالمتلهف كما لو كان الامر حقيقيا لا امرأ مضى

نرى في ما قلناه مثالا واضحا لنقل العواطف وهو ما ارجو ان امثل عليه في هذا الكتاب .

فالرغبة ، التي ابتداؤها رغبة حب صافية تنتقل من الشيء بأكمله الى صورة رمزية . وكل الجمّاعين هم ضحايا « للرمز الحي » ولا يمكن اشباعهم ابداً ، انما يستمدون حياتهم من الارواح ، ويطفئون ظمأهم الى الحب باشكال خيالية . لهذا لا يعرف الجمّاع الطمأنينة ابداً ، ولا ينفك عن الجمع .

وإذا اتفق ان باع بمجموعته ، تراه يبدأ حالا بجمع اخرى ، او تراه يحاول ان يبدل الذي عنده بغيره ، او يغير او يحسن بمجموعته. لا ينتهي من الجمع حتى يقبضه اعظم الجمّاعين اليه ، فيريحه من اعماله في هذه الدنيا .

ولو علم الناس مقدار ما ينفق من الحب والالم سدى في مبيع هذه المجموعات لاحجموا عن شرائها . ولكن يظهر ان الحياة تصبح متعذرة إذا نظرنا الى كل شيء هذه النظرة الجدّية . ان افراحنا منتزعة من آلام غيرنا ، وقيمة الصيد في نظر (دون جوان) تأتي من كونه إنما يحاول اصطياد امرأة غيره وهكذا الجمّاع فانه يسر ان يحصل على نموذج قيّم من شخص آخر . وإذا كان الجمّاع (دون جوان) مقنعا فقد امتاز على قرينه الشهير الذي جزّأ حياته في متابعة شهوته البهيمية.

غير ان الاشياء التي يرغب فيها الجماع لا تفقد قيمتها بهذه السهولة . بل بالعكس فان قيمتها تزداد مع الزمن . فان طابع البريد الذي لا قيمة له اليوم تقريبا يصبح نادراً بعد مئة عام . والاثاث البيتي تزداد قيمته كلما تقادم عهده

اما النساء ؟ .....

ومع هذا ننسى ان تلك التي كان يملكها (دون جوان) ظلت فتية ابداً في ذاكرته — وقد كان كما هو الواقع جماعا لتذكاراته .

كم من امور في الحياة ليست سوى مجموعة كاملة من التذكارات التي نبدّدها في (اللاشيئية) .

الفصل السادس

سباق الشوارع

ما اسعد اولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن العذاب القـــاسي الناشيء عن « الاعمال الاجبارية » او « المزعجات » فالفكر يصارع السخف صراعاً ضعيفاً، ولكنه يضطر الى ان يرضخ لهاتف باطني يناديه بلهجة الآمر قائلا « يجب عليك ان تفعل كذا وكذا » . هكذا يرضخ المتألم ويستضعف امام هذه الارادة الباطنية خوفاً مما قد يلحقه من قصاص مخيف ، إذا لم يقم « بالعمل الاجبـاري » الذي يُفضي به الى موت قريبٍ عزيز عليه .

مثال ذلك الرجل الذي يشعر مجبراً ان عليه ان يلمس جميع الصور التي يراها في بيت غريب دخله ، فاذا لم يقم بهذا العمل الرمزي ، ظل يعيش في عذاب مستمر محاذراً ان يقضي على حيـــاة صاحب البيت بسبب خطأه هذا .

واليك بعض الامثلة المقتبسة من الحياة اليومية تبيِّن لنا ان الرجل العادي عرضة لمثل هذا الاجبار وان كلاً منا يرزح تحت تأثير هذه السلطة السرية الغاشمة الا وهي « الاعمال الاجبارية » و « المزعجات » وليس هناك فرق جوهري بين الصحة والمرض بل بينهما الوف من درجات الانتقال، ومن الصعب عادة ان تشير الى حيث تنتهي الصحة

ويبتدىء المرض . وكل من ركب منا درّاجة او كل راجل لا بد ان يكون قد اختبر تلك الرغبة الغريزية التي تدفعه الى الاشتراك في السباق مع اشخاص مجهولين لديه ، تلك الرغبة التي تدفعك الى ان لا يسبقك من يمشي خلفك ، ثم تبذل كل جهد دون ان تشعر لتلحق بمن هو قدامك . وقد وصف لي احد المشاهدين الاذكياء الذين درسوا هذه « الاعمال الاجبارية » التي تقع كل يوم ، هذا النوع من السباق الذي لا هدف له قال :

« انا في شارع « ماريا هلفر » واريد ان اصل الى دار التمثيل الشعبي الالماني في الوقت المعين . غير ان وقتي قصير فاقف في الشارع وانظر امامي فاختار من بين الجموع في الشارع إما شبحاً طويلا — او امرأة يزين الريش قبعتها او رجلا يلبس قبعة رسمية . واستعد لالحق به ، غير ان منافسي يسبقني بما يقرب من عشرين الى خمسين خطوة ، فاقول لنفسي « يجب ان ألحق به عند وصولي الى الفنار الرابع من المكان الذي انا واقف عنده او من عطفة الشارع الاولى . وابتدىء بالمشي فاذا قاربت ان ألحق بمنافسي وادركت انني سألحق به قبل ان اصل الى « الهدف » الذي وضعته نصب عيني ، ابطىء في خطواتي فألحق به في اللحظة الاخيرة ، وهكذا افوز عليه وكثيراً ما تمنعني هذه المحاولات من الوصول الى غايتي ، الا وهي الوصول الى دار التمثيل باسرع ما يمكنني . ولا تقف المسألة عند هذا الحد بل قد تحدث عراقيل غير منتظرة اثناء السباق . فقد يكون منافسي (وقحاً) فيقف متفرجاً على شرفة احد المخازن فافعل مثله لارى ما ينظر اليه هذا « الابله » وانتظر

قليلا حتى يعاود سيره ، واترك له — تكرماً مني — مجالا امامي ، كي ألحق به بالتأكيد قبل وصولي الهدف الذي وضعته امامي . غير انه إذا اطال الانتظار ، اعتبرت تأخيره انتصاراً لي فاقرر ان اترك المقهور وشأنه واختار لي فريسة جديدة تبدو لي من بعيد ، واعيد هذه اللعبة بشيء من التغيير فاغضب حقاً إذا وجدت منافسي يدخل بيتاً « بقصد الزيارة » قبل وصوله الهدف المعيّن ، فآخذ في العدو وراءه ، باحثاً مستقصياً بل قد اطلّ على داخل الدار متعجباً من السبب الذي دعاه الى الدخول هناك » .

لقد اخترت هذا المثال من بين كثير من مثل هذه التوافه التي بعث بها إلي مراسلي ولانها تصح كمثال ، ولان « هذا السباق مع الاشخاص المجهولين » ربما كان اكثر هذه البواعث الاجبارية شيوعا .

ولكي نفهم هذه « الاعمال الاجبارية » علينا ان ندرك انها إنما توجد في الانسان الخيالي اما الواقعي الذي لا يؤمن إلا بالحقائق الجافة فقلما يرضخ لمثل هذه البواعث . فالشارع في نظره ليس سوى شارع ، وهو لا يعبأ بالغريب بل لا يهتم به . اما ذو الخيال فيتصف بميزة خاصة ، ذلك انه يمثّل ابداً فصلا من « رواية تمثيلية . وكل شيء في نظره رمزي . بل هو دائماً يسعى الى ان يعترف به الناس او الى ان يمتلك قوة . وله هدف يضعه امامه ويسائل نفسه هل يصله يوما ما ، فيصبح الشارع عنده رمزاً لطريق الحياة — ويدفعه الطموح الى ان يعرف موقفه بالنسبة الى غيره من الناس . ما هو عدد الذين يفوقونه قوة وشأنا ؟ ومن منهم بلغ مرتبة اعظم مما بلغ هو ؟ هكذا يصبح

الشارع اختباراً لقواه وللشعور بذاتيته فيتمكن بشيء بسيط من الجهد في تخيّله ان يجلب لنفسه اعظم الانتصارات فاذا سبقه اخوانه في المهنة في العمل ، او إذا لم يرتح الى ما قد وصل اليه ، او إذا وجد الهدف البعيد لا تصل اليه قواه ، شعر بمذلة بل اخذ يشك في نفسه ، ولكي يرضي شعوره بالمذلة والضعة يرتّب سباقا مع شخص غريب ، يمنحه امتيازاً على نفسه . فيتذوق لذة الانتصار والغلبة مقدما . ويذلّ خصمه . وينعته « بالثقيل » و « بالقليل الذوق » وينزل مرتبته الى مستوى « البلهاء » . ثم يتنازل لان يهتم بما يحدث لهذا الغريب وبما يشاهده في شرفة المخازن ، ويصحب هذا الاهتمام دائما شعور بالعطف عليه ، وحس بالعظمة المنتصرة . فاذا لحق بمنافسه عند الفنار الرابع ، التذّ بهذا النصر البخس وهو نصر لا يدري المغلوب عنه شيئا . غير ان هذا النصر هو رمز لانتصاراته في المستقبل ، فكما انتصر على هذا الغريب — رجلا كان ام امرأة — فسوف ينتصر في النهاية على اخوانه في العمل وعلى اصدقائه ومعارفه ! انه لم يصل بعد الى هدفه ، ولمَ ذلك ؟ هل يشعر بنقص في مقدرته ؟ بالعكس انه يشعر بفيضٍ في قواه ومقدرته غير انه يعدّ عدته لكي ينتصر على جميع الناس وجميع الاشياء في اللحظة الاخيرة .

ارى من الخطأ ان استمر في التحليل فأتساءل لماذا اخترت مثل السير الى دار التمثيل هذه ؟ هل كان ذلك المتسابق يذهب الى دار التمثيل لمشاهدة التمثيل للمرة الاولى ؟ هل انتهى بذاته من تأليف رواية ؟ ام هل اشغل ذهنه بكتابة رواية تخلد اسمه وترفعه عن مستوى

المتاعب والمشاغل . الا يستطيع وهو الرجل الذكي ان يثم ما وجده كثيرون غيره من الاغبياء المائعين سهلا وميسوراً ؟

انا نرى ان وراء هذه الاعمال الاجبارية التي تظهر عديمة الضرر مآساة تنبيء عن طموح لا يزال غير مشبع . فان ذلك الرجل قد امتلأ قلبه شعوراً لم يدفع ثمنه غاليا عن قيمة نفسه قبل ان يصل الى دار التمثيل ، حيث يكون انتصار مؤلف الرواية صدمة له . فيدخل دار التمثيل ومثله مثل المنتصر الذي توّج رأسه بالغار ، يحمل الجائزة الاولى في السباق الاولمبي في شارع (ماريا هلفر) وهو تحت تأثير نشوة (ذاتيته) مطمئنا الى جنونه الذاتي .

وما اقصر ما تظهر له الطريق . ان ربع الساعة تلك في دار تمثيله الوهمية ، جعلت السباق في الشارع لا يدوم اكثر من دقيقة واحدة . لقد كانت امامه عقبات كثيرة يتحتم عليه اجتيازها واناسا كثيرين يجب ان يسبقهم قبل ان يصل الى دار التمثيل .

وقد يكون عمل غيره سهلا اما هو فيشبه (دامون) في رواية (برغشافت) لشيلر إذ عليه ان يختار عقبات وحواجز تكاد تكون غير قابلة الاجتياز، بل عليه ان يقاوم تيارات شديدة ، وعصابات من الاشقياء، قبل ان يصل الى المسرح . لقد دفع ثمن سروره غالياً ولهذا زاد في قيمة هذا السرور واغلاه. واخيراً علينا ان نذكر حقيقة بسيكولوجية هامة قبل ان نختم هذا البحث وهي ان هناك اناساً يتألمون ، من الخوف من البطالة ، فلا بد من اشغالهم دائماً بعمل من الاعمال . يقرأون وهم في القطار او اثناء سيرهم ويحيكون مناظر وهمية في اذهانهم او

يتعلقون ابداً بعملهم . ولكن هلا كفّوا عن التفكير ؟ ان مثل هؤلاء لا يستطيعون ان يختلوا وافكارهم او ان يذهبوا الى نزهة دون رفيق. يتسلط عليهم ، ابداً شعور بالخوف من الفراغ .

ان مثل هؤلاء الذين يفرّون من انفسهم هم الذين يتعرضون « للاعمال الاجبارية » ذلك لانهم في شغل شاغل دائماً ، بل اشغل من شاغل . مثل هؤلاء يملكون دور تمثيلهم الخاصة إما في الشارع او في البيت . وسواء استمدوا ألما ام سروراً منهـا فامر لا كبير شأن له . لان الغاية تكون قد تمّت عندهم إذا اشغل الوقت بالنزاع مع انفسهم او مع خصم خيالي ومرّ الوقت سراعا بحيث يمنعون من الاعتراف بالحقيقة الجافة . ومثل هؤلاء لا يعرفون الحقيقة كلها عن انفسهم . فان مثل هذه « المزعجات » و « الاعمال الاجبارية » مثلا تتملك ذهن امرأة غير مسرورة بزاوجها، بقيت احلام حبها السرية غير متحققة. مثل هذه تمثّل دوراً هزليا لامرأة تزوجت زواجا سعيداً فوقعت على خير الازواج . تشكو هذه من اجبار يشغلها من الصباح حتى المساء فهي ابداً تفتش بيتها حتى لا يعلو الغبار اية زاوية فيه ، وبحيث يكون كل شيء في محله . بل تلمس كل شيء لترى ان كان كل شيء قد وضع في مكانه حقيقة .

لا احاول ان افسر هذه « الاعمال الاجبارية » غير انها بالتأكيد تخدم غاية واحدة الا وهي ان ليس في النهار بطوله لحظة خالية . او خذ مثلا ، القاضي الذي يتعذّب وتتناوله الظنون بعد كل جلسة ، في صحة القرار الذي اصدره ، إذ يشعر دائما ان لكل حق وجهتين ، فيظل

يردد في ذهنه براهين الطرفين المتخاصمين في القضية ، ما لها وما عليها غير متلفت الى القوة « المعكوسة المقهورة » التي تهدد توازنه دائما . وتبدو جميع عواطفه كأنها قد تحوّلت الى « تأملات عزيزة » احتضنها بالرغم منه .

عفواً لقد ضللنا الطريق وخرجنا عن موضوعنا « سباق الشوارع » ! لقد وجدنا الشهوات القبيحة التي تختفي وراء هذا السباق وهي الحسد والطموح وسوء القصد ، والفشار والجنون الذاتي والعمى المقصود والتمثيل ، وتربض وراء جميع هذه نفس مشتتة قلقة . فهل لنا بعد هذا ان نتكلم عن « الاعمال الاجبارية » في الرجل العادي غير الشاذ ؟ ماذا نقول في حالة الرجل المريض ؟ ليس الجواب على هذا صعبا . فجميع الاشخاص العاديين الاصحاء هم من ناحية ما ، مرضى كما ان جميع المرضى هم من ناحية ما ، اصحاء . فالفكر لم يكن بعمل في سباق ربع الساعة في الشارع . تصوّر الان ان تدوم هذه الحالة فتتكوّن لديك صورة عن الجنون . ما الفرق بينهما يا ترى ؟ الفرق هو اننا نحن الاصحاء نكتشف طريقنا ونحن عائدون الى مملكة الصحة العادية .

ان الجنون يمد حدود العالم الى ما لا نهاية . فيسمح لنا ان نحتفل بانتصارات على خصوم اشداء ، ويقودنا من ضيق الحياة اليومية القاهرة الى العلو الشاهق ، ويدخلنا في تجارب نتعطش اليها . وحاجاتنا تتلخص في ان نحيي وان نسعى وان نصعد وان نهبط وان

نتنصر وان نغلب وان نحب وان نكره . ويكفينا ان نصلها ولو في الوهم او بان نصبح دون كيشوت(١) الشوارع . نترك وراءنا (سانكو پانزا الجريح) يئن من حماقتنا — التي قد تمثل فيما بعد اعلى ما نصل اليه من الحكمة .

(١) بطل رواية هزلية الفها ميجل دي سرفانت بعد خلاصه من الاسر في الجزائر سنة (١٥٨٠) وكتب روايته سنة ١٦٠٥ واتمها سنة ١٦١٤ . ملؤها السخرية على تبجّح الفروسية في القرون الوسطى .

obeikandl.com

الفصل السابع

عذاب الاختيـــار

يجد القارىء فيما يلي من المراسلة مثالا جيداً لعادة التردد عنـد بعض النساء لسبب من الاسباب المجهولة ، فقد كتبت احدى السيدات الى الطبيب الكتاب الآتي :—

« عزيزي الدكتور

انا امرأة تامة الصحة ، مسرورة بزواجي ، قانعة تمام القناعة بما قسم لي ، ولي من زوجي ولدان وليس لي ما اشكو منه . غير انني اشكو نوعا من القلق ، لا ينغص عليّ عيشي تماما إلا انه يجعلها دون ريب صعبة . ومع انني نشيطة حازمة ، اكاد لا استطيع ان اشتري اي قطعة من الالبسة لي . وربما استطعتَ ان تزداد علماً بحالتي إن اعدت عليك حوادث الاسابيع الماضية . انك بلا ريب تعلم ان المرأة التي تهتم بمظهرها الشخصي ، تعالج ما يتعلق به بتفكير معقول وبعد نظر . واني ارى صاحباتي عادة ينظرون الى ما في المخازن ، ثم ينتخبن بائعة برانيط من بين كثيرات . ولا يمضي وقت حتى يكتفين ويقتنعن بما اخترنه . غير ان بعضهن يترددن قليـــلا ، ويحكمن عقولهن ، وربما اعدن البرانيط التي اخترنها واخذن غيرها . اما انا فما ينتابني قبـل اعطاء الحكم ، لا يجوز ان يعتبر اختياراً ، بل هو مرض يشبه الحمى .

فانني اقلق عند بداية اعطاء الحكم واعرف ان هناك عذاباً اعظم ينتظرني فلا املك ان اقول هل اشتري ؟ ام لا اشتري ؟ واخيراً اذهب الى بائعة البرانيط . ما اسعدني لو تمكنت ولو مرة من ان ارى برنيطة فاقول لنفسي « اريد هذه ولا اريد سواها » ولكنني اجد دائماً برنيطتين او ثلاثاً تعجبني .

« فاذا اخذت البرنيطة التي اخترتها في البدء الى بيتي ، ونظرت الى نفسي في المرآة ، تصورت ان الثانية ربما كانت تناسبني اكثر . وإذا عزمت على شراء الثانية تأسفت حالا لانني لم اختر الاولى . وهكذا كأنّ لكل برنيطة ميزة خاصة . وارجح انك قد تنصحني بان اترك زوجي يختار لي في مثل هذه الاحوال الحافلة بالشكوك ولكن هذا هو الامر الغريب، فان قرار زوجي لا يرضيني. فاقول لنفسي « ان ذوق المرأة هو الذي يعتمد عليه في مثل هذه الامور ». فماذا اصنع ؟ هل اطلب اذن ، رأي صديقاتي ؟ ان هذا لن يكون ابداً . اية صديقة من صديقاتي منزهة كل النزاهة حتى ترضى ان ترائي اكثر جاذبية منها ؟ وعلى كل تراني اتراجع عن ان اطلب مساعدتهن في اختياري واذن فلم يبق لي من يكلمني ويرغمني على الاختيار سوى امي . فهي التي يجب ان ترافقني وتلفظ كلمتها الاخيرة . وهكذا فان قرارها يكون نهائياً عندي . وما يصدق على برانيطي يصدق ايضاً على جميع مشترياتي التي تخصني شخصياً اما في ما يتعلق باولادي ، او زوجي او ما اقدمه من الهدايا لاصدقائي فانني استطيع ان اختار مستقلة دون تذبذب واعتقد

ان اختياري فيه شيء من الذوق . اما إذا كان الامر يتعلق بنفسي ، فانا مشتتة كل التشتيت .

« انا عبدة امي اسلك معها كما لو كنت بنتاً صغيرة تحتاج الى حماية والدتها . وكم حاولت ان اتخلص من استبدادها ؟ ولكن محاولاتي جميعها فشلت فشلا تاماً ، ولهـذا اصبحت افضل ان اصطحب والدتي معي عندما اذهب لشراء حاجاتي في السوق . ويا لهول المصيبة عندما افتكر بالوقت الذي تمتنع فيه والدتي عن مرافقتي . لا استطيع ان اتحمل التفكير في موتها ! لانني اعتقد انني لا استطيع حينئذ ان اصل الى قرار جازم بل اظل اتردد بين برنيطتين ، ومودتين ، وخياطتين .

« ان من السخف ان ازعجك بامور تافهة كهذه ولكنني احب ان اعرف كيف يتصل شخص تام العقل في وجهة من وجهات الحياة بالجنون او التطرف .

فاجابها الطبيب بما يأتي :

سيدتي

« ان الحالة التي تصفينها وصفاً متقناً معلومة لدي فانها تمثل امثلة من « الاعمال الاجبارية » التي تتألم منها المرأة الحديثة . فالنساء يخترن ويخترن ولكنهن يعجزن عن الوصول الى قرار . هذه الحالة تحدث في انواع لا تحصى . فهناك المرأة التي تتذبذب مدة طويلة الى ان ترضخ اخيراً ، فتقرر بشجاعة شراء آخر سلعة تعرض عليها . وهناك السيدة التي ترجع في اليوم التالي فترى خطأ في شرائها في اليوم

الاول فتبدله . وهناك الشكاكة التي ترافقها دائماً صديقتها او والدتها لانها لا تستطيع ان تقرر لنفسها ، وهناك اخيراً « المريضة المتألمة » التي تتأسف على ثمرائها بعد وقوع البيع . ولكن حياءها يمنعها من التبديل ، ولكي افسر لك هذا المظهر الغريب ، الذي هو جزء من مرض يعتبره البسيكو انا ليتيق « ضعفاً في الارادة » لا بد لي من ان اشرح لك ذلك شرحاً اوفى وان افهمك المظهر الذي يسمى «بالاعمال المستعاض بها » فما « هو العمل المستعاض به ؟ » خذي هذه الامثلة :

« يغضب احدهم ، فيود ان يجازي خصمه ، ويلاكمه ، ولكنه يكتفي بان يكسر صحناً في بيته فيجعل منه مئة جزء . ورجل آخر فيه ميول اجرامية لقتل نفس ، يصبح صياداً متحمساً ، يصطاد حيواناً اعجمياً كل اسبوع . او تصوري رجلا فيه غرائز (دون جوان(١)) يجمع معرضاً لصور النساء الجميلة ليعبر بها عن انتصاراته بين النساء الحسان . اي يصبح عاشقاً للصور ؟ وترينه يجتاز جميع ادوار الحب قبل ان يقتني الصورة . ويشعر في نفسه بطلا منتصراً عندما تعلق الصورة على جدران بيته . وهكذا يتمكن من اجتياز نوبات شهر العسل الاولى ؟

« وانت يا سيدتي ، ما قلقك في شرائك إلا ضرب من « الاعمال المستعاض بها » ان هي إلا رموز لعقد بيع آخر لا تستطيعين الآن ان تحلّيه . وانك لتسألينني الآن ما هو هذا العقد الذي اشير اليه .

---

(١) شخصية روائية خيالية ذات ميول معكوسة

اراك اجبتني بنفسك . حقاً لقد قلت لي انك سعيدة في زواجك ، ولكن قلتِ في الوقت نفسه ان قرار زوجك في مشترياتك لا تقيمين له وزناً . ان هذه خيانة نفسية لان المرأة التي تكون راضية ومسرورة بزواجها انما ترغب في ان ترضي زوجها — هذا على الاقل ما تؤكده هي دائماً لنفسها ولغيرها — وفي مثل هذه الاحوال تترك زوجها يقرر لها . وبما انك لا تفعلين ذلك يدلني هذا على ان هناك بعض الخطأ . ان التأثر الذي تختبرينه عند اختيارك برنيطتين لا يرجع الى السبب الذي يتراءى لك بل مصدره شيء آخر . هل اخترت اختياراً خاطئاً يوماً من الايام ؟ ربما كان ذلك اهم اختيـــار وهو اختيارك زوجك . وان احترامك الآن لقرار امك يدعوني الى ان اشك في ان اختيارك الاول كان مناقضا لارادة والدتك .

« وهناك تفسير آخر ، قد يوضح لك عملك الاضطراري هـذا . لا بد انك تعرفين ماذا اعني « بالميل للحل والرفض » فان عصبي المزاج (النفاريز) عادة يحلون في تخيلهم ، الحقـائق الراهنة . فانت تحلين زواجك في شرائك البرنيطة وتسلكين كما لو كنت لا تزالين عذراء ، في حالة تمكنك من اختيار آخر . فتصبح البرنيطة عندك رمزاً للزوج (وهي بالاكثر رمز الزوج في الاحـــلام) وانك لا تزالين حرة وانت على اهبة اختيار زوج . ولكنك هذه المرة لا تريدين ان تختاريه وحدك ، لان صوت والدتك المتسلط الذي اهملتـه في المرة الاولى لاندفاعك في حبك يجب ان تصغي اليه الآن . ولهذا تتركين الحكم لوالدتك وهـكذا تعترفين بانه كان افضل ان تصغي الى والدتك من

قبل . وانت الآن تعيدين اهم دور من ادوار حياتك — وهو اختيار الزوج . تعيدين هذا الدور المرة بعد المرة كما لو كان باستطاعتك ان تغيري الحقيقة الجافة القاسية . فانت إذن تحلين عقد خطبتك وزواجك بل وولديك اللذين ربما كانا السبب لبقـــاء هذه المآساة . ماساة في التخيل فقط . انك تسلكين كما لو كنت تختارين الآن من جديد وتعترفين لوالدتك بالحقوق التي انكرتها في الماضي . فانت إذاً تلغين كل شيء .

« ومع هذا فهذه الماساة تمثل لاشعوريا (اي في عقلك الباطني) انك لا تريدين ان تعلمي انك غير مسرورة ، فان لك اسراراً تكتمينها حتى عن نفسك ، وانت مجبرة على ان تبوحي بافكارك السرية في اعمال رمزية . انت إذن تتألمين فان عذاب تقلبك الآن معنـاه في الحقيقة هذا : « يا ليتني سمعت نصائح والدتي وتركتها تختار لي ، وان ترددك الحالي هو قصاص لقرارك الطائش الاول . »

« ربما استنتجتُ خطأً وانت من بين النساء السعيدات القلائل اللواتي هن مسرورات حقيقة عندما يصرّحن بذلك . لان الفرد منا يشعر بانه يجب ان يكون مسروراً . ومن المؤسف ان اختباري يدلني على ان الناس السعداء لا يحتاجون الى تمثيل مهازل (روايات مضحكة) لانفسهم » .

فأجابته :

عزيزي الدكتور

« اعترف انك اصبت في حدسك في نقطة واحدة فقط . لقد

تزوجت بالرغم من مقاومة والدتي الشديدة ولكنني لن اعترف بانني لا احبه وبانني غير مسرورة . انني عصبية المزاج فقط وهذا جميع ما اشكو منه . اشكو من نوبات بكاء . وانحطاط وضعف عجيب في ارادتي . وقد عزمت الآن على ان اذهب الى مصح معتقدة انني سأرجع مالكة صحتي فاكون اسعد النساء . غير انني اتردد بين ثلاثة مصحات ، وقد أشير عليّ بالثلاثة . اما زوجي فيعتقد انني يجب ان اذهب الى مصحة « ب » ووالدتي تفضل مصحة « أ » وصديقتي مصحة « س » على انني ارجح انني سأختار مصحة « أ » لان الهواء هناك يلائمني »

ومرت ثلاث سنوات .

فكتبت الى الطبيب :—

« عزيزي الدكتور

لقد كنت مصيبا في رأيك بعد كل هذا . ذهبت الى المصحات الثلاثة ولم استفد من احدها . ولكنني انفصلت عن زوجي الآن وانا حرة مرة ثانية — وتصور — انني تخلصت من عذابي جميعه . فانني اختار برانيطي مع زوجي المقبل ، الذي يملك ذوقا ممتازاً عجيبا ، وارجو ان لا تنسب ذلك الى نقص في ذوقي » .

هامش :

« ارجح ان هناك نساء كثيرات غير راضيات عن اختيارهن الاول

فقد شاهدت اليوم ما يقرب من اثنتي عشرة امرأة في مخزن بائعة البرانيط وكلهن ترددن في الاختيار .

هل الازواج الأوَل غير مرضين الى هذه الدرجة ، ام نحن كلنا عُميٌ لا نبصر

ان والدتي تعتقد ان البناتْ لو اتبعن نصيحة امهاتهن لوفرن على انفسهن وعلى غيرهن تعباً كثيراً . واكثر الامهات يقلن قولها . غير انني اعرف سيدات اصبحن تاعسات لاتباعهن نصائح امهاتهن . ولكنهن يشترين برانيطهن دون مراجعة والداتهن . لم اكن لاتصور ان بائعة البرانيط هي « الموحي الجديد للمتزوجين ... »

obeikandl.com

الفصل الثامن

الخوف من طبيب الاسنان

إن ايقاف ألم ضرس ، او نزعه ولو لم يرافقه ألم ، لا يمكن ان ينظر اليهما كمسرة من اعظم مسرات الحياة . غير ان هناك كثيرين تتعاظم قوة الحس في افواههم الى درجة تصبح معها مرضا ، بل يصبح الخوف من طبيب الاسنان خوفا مرضيا يصعب علينا فهمه وتعليله وهناك بعض النساء العصبيات اللواتي يفضلن ان يجتزن دور الوضع على ان يخلع احد اضراسهن وقد عرف كاتب هذه السطور رجالاً خاضوا غمار الحرب ومع هذا يرتجفون إذا ارادوا ان يراجعوا طبيب اسنان . وكثير من الرجال يفضّل ان يتحمل آلام اشهر ليل نهار على ان يلجأ الى الطريقة الوحيدة لعلاج الضرس الاكيد وهو مراجعة الطبيب .

ويملك هؤلاء الافراد الحسّاسون جداً ، اعصابا حساسة الى درجة شاذة في ناحية من نواحي افواههم . وإذا بحثنا في الامر رأينا ان الفم عند مثل هؤلاء يشغل مقاما عظيما في نظرهم ، فاما ان يكونوا شرهين او معتدلين في طعامهم جداً او حساسين كثيراً في ناحية من نواحي اذواقهم . واما ان يحبوا التقبيل ، او يروه امراً لا يستطيعون تحمله ، فكأن فمهم يمثل « منطقة حب » فيصبح الفم عندهم إذا جاز التشبيه « آلة

من آلات الحب » . وهناك روابط خفية تربط هذا الخوف المبالغ فيه بالبواعث المرَضيّة ، سنبحث عن مظاهرها وآثارها فيما بعد .

حدثني احد اطباء الامراض العصبية بما يأتي ، والحادثة ترينا ان الخوف من طبيب الاسنان ليس إلا خوفاً مرضياً :

قال : « ان رجلا في الثامنة والعشرين من عمره تام الصحة كان يشكو من ألم في ضرسه . فقالت له والدته يوماً « يجب ان تذهب الى طبيب الاسنان غداً » وبعد ان قضى ليلة لم ينم فيها ، وعد ان يراجع طبيباً كان قد عالجه في الماضي . وفي اليوم التالي ذهب الى الطبيب ، ففحص هذا الضرس ، واخبره انه لا بد من خلعه قائلا : خير لك ان نخلعه الآن دون ألم ، فتولى الرجل ذعراً وتهيج تهيجاً لم يتمكن الطبيب من تعليله . فاجاب : « أيجب ان اخلعه حالا ؟ اليس هناك وسيلة اخرى ، اصحيح انني يجب ان اخلعه ؟ »

فكرر طبيب الاسنان نصيحته بشدة . فسأل الرجل عن الطريقة التي يتم فيها الخلع قائلا : الا تكون وخزة الابرة في حقنة الكوكئين مؤلمة جداً ؟ اليس الاوفق ان يستعمل غاز ؟

فرضي الطبيب بعد ان عيل صبره ان يخلع الضرس باستعمال مخدر فتولى الشاب قلق وتردد وعذاب . واخيراً وجد حلا للمسألة فخاطب الطبيب قائلا « عفواً انني شديد التهيج اليوم ، لانني لم انم لحظة ليلة البارحة . وافضّل ان اتحمل ألم ليلة اخرى واعود غداً . فاعطني الآن ما يساعد على قتل العصب ، او ما يوقف الالم على الاقل . »

اما طبيب الاسنان الذي كان يعرف هذا النوع من زبائنه فانه لبى طلبه . وبعد ان اعتذر صاحبنا بكلمات متقطعة عن اخذه كثيراً من وقت الطبيب مع انه كان قد تخلص من عذاب لا يحتمل ترك «منطقة الخطر» وتولاه حينئذ تهيج يصعب وصفه ، ولا يتناسب مع طبيعة هذه المسألة الطفيفة وخفق قلبه فكاد يختنق ، وارتجف بشدة ، فتعذر عليه ان يعود الى بيته ماشياً . غير ان كل هذا لم يكن ليساوي شيئاً بالنسبة الى المأساة التي مثلها امام والدته . فانه احجم عن الذهاب الى مكتبه ليهدىء روعه قليلا . والتاث عليه الامر فلم يستطع التفكير في عمله . واخذ يتردد على اصدقائه ويطلب منهم عناوين اطباء اسنان من الذين عرفوا باتباع طريقة يتمكنون بها من خلع الاسنان دون ألم او من الذين اشتهروا بالمقدرة الممتازة التي يقدرها الناس بالرغم من انها خرافية .

ولقد مرت على صاحبنا ليلة لم يتمكن فيها من النوم ، من اثر الالم والتهيج . ولما كان اليوم الثاني ازداد كابوسه فلم يستطع بالطبع ان يزاول عمله في مكتبه ، وفقد قابلية الطعام واخذت تظهر عليه علامات المرض فعلا ، ولم يكن ليستطيع ان يفكر في غير طبيب الاسنان وفي خلعه ضرسه، ولكنه عجز عن الوصول الى قرار جازم. واجتازت والدته دور تضحية حقيقية (لا يستطيع ان يفهم ويقدر مثل هذه الآلام سوى امهات مثل هؤلاء الابناء) وجاء طبيب العائلة ، وامر باستعمال املاح البروم المسكنة ووعظ المريض عظة طويلة ، وطمأنه بانه ليس هناك ألم من خلع ضرسه ، وتبرع بان يرافقه الى طبيب الاسنان .

وبحث في الحملة بحثاً طويلا ، كأن الذهاب الى طبيب الاسنان مشروع خطر ونظرفيما يجب اتباعه للوصول الى طبيب الاسنان ، مدة ساعات.

وفي اليوم الثاني عرف الطبيب انه لم يعد يستطيع ان يعمل امراً امام مخاوف المريض. وساروا معا الى طبيب الاسنان الذي كان ينتظر مريضه مستعداً تمام الاستعداد لتخفيف آلامه . ولكن بطلنا التمس ان يسمح له بان يتمشى امام العيـــادة ثم يعود دون تأخير . فقبلت والدته وطبيب العائلة طلبه وتمشى المريض مسرعا امام العيادة. واخذ يتعلل بشراء لفافة تبغ من دكان في الجهة الثانية ، وانه لن يتأخر دقيقة . وانتظرت والدته والطبيب طويلا بحيث خامرتهما الريبة في ان المريض اخذ يتملص .

وازدادت حالته سوءا حتى لم يكن هنـــاك من ريب بانه اصبح يشكو من اضطراب عصبي حقيقي . وفقد صاحبنا المريض مقـدرته على النوم ، بل فقد قابليته للطعام ايضا ، واصبح قلقا يائسا لا يملك صبراً وصار يفكر في الانتحار واضطر الى دخول احدى المصحات ولم يعد يستطيع عملا بالمرة .

واخيراً بعد نزاع شديد راجع كاتب هذه السطور . ورغب اليّ في ان انوّمه لكي تطرد « الفكرة الشيطانية » من رأسه ويحل محلها انتزاع ضرسه . فرأيت حالا ان هذه العاطفة القوية بشأن ضرسه نتجت عن اسباب اشد تعمقا وان هذا الخوف من طبيب الاسنان لم يكن سوى مظهر لخوف اشد، له علاقة بحياته جميعها . ففحصت افكاره باهتمام وحاولت ان اعرف ما يقلقه ويزعجه مما لم يكن له علاقة

بطبيب الاسنان ؟ فاخذت بالطبع جوابا كنت انتظره ، ما اسعدني ان استطعت ان انزع ذلك الضرس . انني اعيش مع والدتي واخشى انها هي التي تضرني كثيراً ولي خطيبة اعبدها » .

فاجبت « هل لك خطيبة . ومتى تنتظر ان تتزوج » فاجاب : « هذا هو السر لقد كان يجب ان انزوج منذ ثلاث سنوات ولكن الحرب العامة كانت قد اشتعلت وانت تعلم ان الانسان لا يستطيع ان يتزوج اثناء الحرب » .

— « وماذا تقول خطيبتك في امر خوفك من طبيب الاسنان ؟ »

— « انها تظن ان هذا الخوف لا اساس له كما تعتقد ان بي كثيراً من السخف غير هذا ، وذلك لانها لا تفهمني . انني قلما اراها . ولا اذهب اليها سوى مرتين كل اسبوع . »

— « ولماذا هذا التشديد ؟ »

— « لان هذه هي الوسيلة الوحيدة لكي تبقى علاقاتنا خالية من كل البواعث غير النقية — اي طاهرة — اثناء فترة الانتظار الطويلة . »

ولقد كان اعترافه هذا كافيا لي . ان الحب الشديد الذي يتملك نفس المحب لا يمكن ان يعنو لحدود كهذه(١) او لتبرير نفسي كهذه . واصبح الآن من المحقق ان مريضنا كان في حالة نزاع صعبة جداً . وبعد ان باحثته ازداد يقيني في المسألة .

---

(١) اي توهمه ان قربه من خطيبته يؤول الى علاقات غير شريفة .

كان صاحبنا يشكو من حصر افكاره وتثبيتها في والدته ولم يكن ليتصور الحياة بدونها ، وكانت هي سبب خرابه هذا . كان خائفا من الزواج ولكنه كان يخاف ايضا من فسخ خطبته . كان يعرف ان خطيبته كانت تحبه حباً جماً ، وانها تضحي حياتها من اجله لو فقدته .

وفيما كنت اراجع حالته في ذهني اكمل المريض كلامه . فذكر انه اضطرب كثيراً لحلم مزعج كان قد حلمه في الليلة الماضية ولم يستطع تعليله وظهر له نبوءة سوء . حـــلمَ انه كان عند طبيب الاسنان الذي خلع له ضرسه دون ألم . ثم اخذ الضرس ووضعه في علبة فيها صورة خطيبته ووقعت الصورة واختفت في الارض .

فهذا الحلم اضاع صوابه ، لقد كان الضرس رمزاً لحبيبته وكان خلعه رمزاً للانفصال ومعنى هذا الانفصال عن عروسه ، الموت .

فكان تردده في الذهاب الى طبيب الاسنان عملا قام مقام تردده نحو عروسه .

وفي مثل هذه الاحوال لا ينفع سوى النظر الى المستقبل نظراً واضحا . ولم تمض اسابيع حتى راجع صاحبنا الطبيب واستغرب هذا موافقته على خلع ضرسه . ولم تكن امه ترافقه هذه المرة ، بل رافقته صبية شقراء نحيلة قدمها الى الطبيب كخطيبته .

وبعد ان خلع الضرس بسرعة دون ألم قال الطبيب : « كان يجب ان يخطر ببالك هذا الفكر قبلا . ان الحب يسهل كل الاعمال ، فانك من اجل عروسك تحملت الالم كبطل . »

غير ان المريض الذي كان ينظر الى الضرس قال باستغراب لخطيبته : « ما اشد عجبي . ان هذا الضرس لا يشبهك بالمرة . »

فكان جوابها اشد دهشة عند طبيب الاسنان « نعم انه يشبهني فله جذر قوي ثابت . »

وبعد اسبوع سافر الزوجان الى (سمرنج) . وتركا وراءهما والدة في البيت ، تذرف دموع الفرح والحزن ...

obeikandl.com

الفصل التاسع

المتاخرون أبـــداً

لكل منا تقريباً هفوات خاصة به يرتكبها دائماً ويعيدها بالرغم من نتائجها المكدرة ، وبالرغم من توبتنا واصرارنا على عدم تكرارها فكل رسم مدرسي ندفعه الى الحياة (وهي معلمنا الاكبر) يذهب عبثاً . ونرانا في احرج الاوقات نعود فنرتكب هفواتنا الماضية .

مرّ وقت طويل على علماء الطب البسيكولوجيين حتى توصلوا الى الاهتمام بهذه الشواذ البسيكولوجية التي نشاهدها عند الناس الاصحاء والى اعتبارها عوامل قوية قاهرة في الحياة. وتشتمل هذه الشواذ على الاعمال الاجبارية التي يقوم بها المرء مخالفاً فيها ارادته وتفكيره وما عزم على القيام به ، وهي نتيجة عواطف قوية تنتصر فيها القوى البسيكولوجية على قوى الفكر .

بعض هذه الاعمال الاجبارية الشائعة هي « وصول المرء متأخراً » وهي حالة نراها في بعض الناس . نعرف هذا النوع من الناس في دور التمثيل ونعرفهم في الولائم والدعوات — اولئك المتأخرين المزعجين ، الذين يضطر الواحد الى الوقوف لكي يسهل لهم المرور فيخسر دقيقة لذيذة ويعكر مزاجه . ويتبع دخولهم ، ازعاج لغيرهم ، وهمهمة ودمدمة في المكان ، ويرمق الزوج امرأته المتأخرة شزراً على غير

جدوى. على ان الزوجة تكرر العمل ذاته في المرة الثانية . وتجد دائماً عذراً لحضورها متأخرة، اقول الزوجة لان النساء هن اللواتي يشكين عادة من هذا الاجبار القتّال، على الحضور متأخرات جداً .

يجد هؤلاء لانفسهن عذراً دائماً . فاذا كانوا في المدينة انتحلن اعذاراً منها ، ذلك التراموای اللعين الذي كان مكتظاً بالناس او الذي تعطلت آلاته في الطريق ، او الذي تأخر عن موعده ، نصف ساعة ، فاغضب الركاب ، . ولكن هناك اسبابا اخرى منها ان المفتاح فقد ولم يعثر عليه ، او ان زائراً غير منتظر قدم ، او قد يتذكرن (وهن في الشارع) ان المفتاح ترك على المكتب ، او ان ألماً اصابهن في البطن ، او ، نوبة ، عجيبة او ان هناك شغلا مهما كان يجب القيام به الى آخر ما هنالك من الاعذار الواهية

وفي الامكان ان نبين بوضوح ان هذه الحالة هي اضطراب عصبي، وقد عرفنا معنى هذا المظهر المشوه الذي نراه في الاجبار العصبي — هو الخوف من المجيء متأخراً — وعرفنا تلك الشخصيات القلقة التي نصادفها على محطات القطر ، من الذين يجلسون في غرف الانتظار ساعات قبل سفر القطار ، ويسألون الحمالين الوف المرات عن وقت قيامه ولماذا لم يفتح مكتب التذاكر بعد ؟ وهناك من يلتهمون طعامهم التهاما بسرعة جنونية ، ثم ينظرون الى ساعاتهم وقد تملكهم خوف من الحمّال الذي قد ينسى حقيبتهم او يتأخر عن احضارها ثم يتذكرون شيئا كارسال رسالة تلفونية . واخيراً يسرعون فيصلون الى صالونهم قبل سير القطار بلحظة رغما عن جميع احتياطاتهم . وتصبح جميع حياتهم

نزاعا للحضور في الوقت المعين ، ويظل هذا ابداً هدفا لا يصلون اليه . وحياة مثل هؤلاء سرعة دائمة فهم يسرعون من الصباح حتى المساء تشغلهم اعمال ووظائف . ومهمات لا تعد ولا تحصى ، لا يتممون احداها . وبالرغم من شكاوٍ اشد خطورة ، وبالرغم من عدم سرورهم الظاهري من (حياتهم هذه المساقة) نجد انهم هم الذين يرتبون هذا الدور « اي سباقهم ضد الوقت » فهم يمثّلون ابداً فصلا واحداً هو حضورهم متأخرين .

وإذا بحثنا في الامر بحثا دقيقا وجدنا بعض خصال بسيطة تفضح معنى هذا السباق الاجباري وتكشف سرهُ . يكون الواحد منهم يقرأ كتابا بهدوء فليس في هذا مجال للتسابق مع الوقت . ثم ينظر القارىء فجأة الى عدد الصفحات ، في الكتاب ويضع لنفسه حداً من الوقت قائلاً : « سأرى إن كنت اتم هذا الكتاب في ساعة » فيجيبه صوت داخلي : « انت تغش نفسك ستضطر الى ترك بضع صفحات » فيجيب الصوت الاول « لا ، سأقرأ عاليا ، وببطء ومع هذا سأحاول ان انتهي في ساعة » .

فهذه الحالة مناسبة لابتداء الهجوم ، وهكذا يبتدىء السباق ضد الوقت فتزداد القراءة سرعة وينحي الخوف من ان لا ينتهي الكتاب في ساعة ، جميع افكاره ، بل قد يفقد الرغبة في الكتاب نفسه ، ويأتي مع هذا القلق والشوق شعور عميق بالسرور (سرور بالفوز) لهذا القلق المعذّب .

ويصعب ان يعترف المريض بصراحة عن الجائزة التي ينالها من

سروره . اما طبيب الامراض العصبية الذي يعرف اولئك العصبيين الذين يشكون من هذا العـذاب الذي لا يوصف ويهددون انفسهم بالانتحار إذا لم يتحرروا من عذابهم هذا فانه يتعلم في النهاية مرغما ، ان المريض يقاوم الشفاء لان ارادته الداخلية «ارادة المرض» او بعبارة اخرى « سروره في الالم » وهي حاله تعذيب يوجهها الى ذاته — تلعب لعبة جميلة مع اولئك المتألمين ونحددا لحالات العصبية بين المرض والصحة. وكلما ازدادت شكواهم ، استمدوا لذة سرية من عذابهم الذاتي .

يرينا هذا ان الشكل الذي تتخذه هذه الحالة العصبية — التمثيل العصبي — له دائما مغزى عميق . فمثل هذا العصبي (النفروز) ممثّل في حياته يلعب دائما الدور ذاته .

ماذا يعني هذا المجيء متـــأخراً على مسرح الحياة ؟ ما الذي يجبر (المريض الممثل) فيشغل ذهنه دائما بانه قد يفقد شيئا مهماً ، إذا جاء متأخراً كثيراً ؟ ولماذا تكون احلامه جميعها مؤلفة من فصول يأتي فيها متأخراً ؟ (او ان يتأخر عن قطار في حلمه فلا يلحقه ، او عربة تمر به فلا يلحقها ، او ان البنت التي يريد ان يتحبب اليها قد خطبت وهكذا الى ما لا نهاية ، فلماذا كل هذا)

ان هؤلاء هم من الذين يتألمون من صغرهم لكونهم قد ولدوا متأخرين وهم عادة الاخوة الصغار والاخوات الصغيرات اللواتي يتألمن من صغرهن من اخوانهم الذين هم اكبر منهم سناً . هذه مأساة قايين وهابيل القديمة او قصة يعقوب وعيسو .

لا ريب في ان الاخ الاكبر او الاخت الكبيرة تتمتع بامتيازات لا يتمتع بها الصغار . وهذه التأثيرات الصبيانية تترك اثراً في الطفل لا يمحى واوضح مثال رأيته « للجيء متأخراً » رجلٌ ارستقراطي ورث اخوه الاكبر ثروة طائلة مع حقوق مهمة ، ولم يترك له سوى مبلغ زهيد . فكان هـذا المريض يردد في نفسه دوماً ما كانت حالته تكون لو كان هو البكر .

ويحدث احياناً ان بعض الابناء يحسدون اباءهم والبنات امهاتهن ويتمنون ان يكونوا مكانهم . اكتفي بذكر اسكندر الكبير الذي كان يشكو من خوف هو ان اباه ربما لا يترك له بلاداً يمتلكها . لا ريب في انه كان يشكو من المجيء متأخراً . ان نظرة هؤلاء الى العالم مختلفة فهم يظنون ان ليس في امكانهم الحصول عـلى شيء لان غيرهم قد تقدمهم . وينسبون ذلك الى حقد القضاء عليهم ؛ فانهم هم الذين يجب ان يتحملوا مصائب غيرهم من الذين سبقوهم من مستواهم العقلي ومقدرتهم الطبيعية . فيحرمونهم من الشهرة ، ويكتشفون ما كان يجب ان يكتشفوه هم ويتغنون باناشيدهم ويكتبون رواياتهم . يجدون انفسهم لا قيمة لهم بل اعضاء اضافيين في المجتمع . وهناك الوف ممن يعتقدون ان واكنز الموسيقي الشهير قد سلب منهم حقهم الموروث .

وكل رجل عظيم يعلن عن عظمته للعالم بعمل عظيم يقوم به ، يخلق له اخواناً يلعنونه ويحقدون عليه ويشعرون انهم شلوا ولم يعد في امكانهم القيام بعمل منتج . امثال هؤلاء قد جاءوا متـأخرين جداً يتعامون عن فهم الحقيقة — بل لا يريدون ان يروا — ان ليس هناك

من يأتي متأخراً ، وليس هناك شيء متأخر ابداً . بل كان كل شيء ذي اهمية يأتي متقدماً جداً . وهذه هي المأساة . ان الذي يبعثر قواه على مناظر الحيـــاة الصغيرة لا يبقى له شيء للاعمال العظيمة . يظل دائماً متأخراً جداً ويلتذ سراً وينتصر عن طريق هذا الشعور مهما شكا من ذلك علناً . ومن المؤسف ان هذه هي الانتصارات الوحيدة التي يحصل عليها امثال هؤلاء العصبيين في حياتهم اليومية . ينتصرون على انفسهم فقط ، ويقاتلونها ويثبتون على القتال ، ويرضيهم ذلك باسباب مقبولة كثيرة اي ما كان يمكنهم القيام به لو لم يأتوا متأخرين جداً الى هذا العالم . هذا الارضاء الذاتي هو الجذع الذي يحمل اغصان شعورهم الذاتي الضعيفة . يقاتلون في سبيل شخصيتهم ويحتاجون الى عذر دائم ليبرروا عدم حصولهم على الغرض السامي الذي سنه لهم طموحهم الواسع .

ما اعظم ما كانوا يصيرون اليه لو لم يعيشوا في هذا الزمن فقط ! ان الزمن عدوهم وحاميهم ومحاميهم وقاضيهم . وانتقامهم الوحيد بل وسرورهم الوحيد ، هو هذه اللعبة القاسية التي يلعبون بها مع الزمن . يكرهون الحضور في الوقت المعين ، لان معنى ذلك اعترافهم بالزمن ، الذي لا يريدون ان يعترفوا به .

الفصل العاشر

ارادة المرض

تعتبر الصحة دائماً أثمن ما في الوجود واعزه ، الا ترى ان ما نتمناه من الخير لغيرنا يشمل عادة الصحة الجيـــدة ، بل هي اجل ما نتمناه . (إذ نتمنى الصحة ، والسرور والحياة الطويلة) ذلك لان المرء يستطيع ان يتحمل كل شيء إذا كانت صحته جيدة . يقول احد الامثال « ان الصحة اعظم ثروة » وكلنا يسعى الى الصحة بل نضحي بأغلى ما عندنا للحصول عليها ولاستبقائها . الا ترى اننا نرضخ للقوانين والنظم الصارمة ، ونضغط على ميولنا في مجار غريبة عنا ، ونتحمل جميع انواع المشاق بل نمرض لمبالغتنا في الحصول على صحة جيدة . ان « ارادة الصحة » هذه هي عامل هام في الثقـافة الحديثة وهي تظهر في اهتمام العـالم جميعه بالالعاب الرياضية . و « ارادة الصحة » هذه هي صفة بارزة من صفات عصرنا الحاضر . غير ان كل شيء في هذه الحياة ذو وجهتين — ثنائي القطب — وهكذا فهناك ايضا « ارادة المرض » .

وإذا تكلمنا عن « ارادة المرض » فقد يظهر كلامنا اول وهلة بعيد الاحتمال بل مضحكا . ونحن نعرف بالطبع اولئك الناس الذين يدعون المرض لمقـاصد مختلفة ، فندعوهم « بالمتمارضين » ، فهؤلاء لا يملكون « ارادة المرض » بل يدعون انهم مرضى فقط ، ويتظاهرون

بذلك ، وهم في الحقيقة في صحة جيدة فيما يتعلق بذاتهم . وانما هم مرضى لاجل من يحيط بهم او يتصلون بهم .

ولكن المرضى الذين سأتكلم عنهم والذين تلعب فيهم « ارادة المرض» دوراً هاما، هم بالعكس اصحاء في نظر غيرهم احيانا ومرضى في نظر انفسهم فقط . مثل هؤلاء يسرّون ويرضون سراً ان يمرضوا مرضا شديدا دون ان يتمكن احد من ان يتبيّن مرضهم او يشكّ في وجوده . اولئك هم « العصبيون » الذين يتألمون في ظروف كثيرة من مرضهم ويضطرون الى ان يتحملوا اشد الاحساسات كدراً . وبالرغم من ذلك فقد نشأوا يحبّون مرضهم ولا يرغبون ابداً في التخلص منه، بل يتحاشون عن قصد ، الظروف التي قد تعيدهم الى الصحة والعافية ، وهم يتفرسون في آلامهم ، ومجرد عدم شفائهم وعجز كل طبيب عن مداواتهم، يبعثان فيهم سروراً عظيما فيتملكهم ذلك الافتخار المضحك بان مرضهم فريد في بابه . وهذا الافتخار خاص بالموسوسين على صحتهم ، ذلك الافتخار الذي يظهر في ابتساماتهم المتهكمة المتعجرفة — ويظهر هذا جليا عندما يفحصهم الطبيب فيأخذون في تعداد قائمة العلاجات والعقاقير واسماء الاطباء الذين صارعوا مرضهم حتى ذلك الحين . فلم يفلحوا .

وهنا تبرز لنا مسألة هامة اخرى . وهي هل يعرف هؤلاء المتألمون « ارادتهم المرض » ام ان ذلك احساس لاشعوري فيهم ؟ اننا نسي استعمال كلمة « لاشعوري » هنا . فان جماعة فرويد في التحليل النفسي يحبون الاستفادة من فكرة اللاشعورية ويرون ان الدافع

لارادة المرض هو لاشعوري . اما ابحاثي الحديثة فقد اثبتت ان كثيراً من الامور التي ارجعتها سابقاً الى « اللاشعوري » متأثراً باراء فرويد ، يمكن اثباتها بانها شعورية . وربما كان من الاصح دعوتها بالاختبارات البسكولوجية الناشئة عن « الشعورية المبكرة » . وهي تلك الاختبارات التي لا تقع دائماً تحت سلطة عقلنا الشعوري بل تزاح الى ناحية من نواحي العقل من وقت لآخر ، فاذا سُلِّط نور انتباهنا على مجال الشعور كان النور اشد لمعاناً في بعض الاجزاء منه في الاخرى ، بينما تضاء النواحي الاخرى إما بالاشعة الجانبية او من آن لآخر . فاذا تمثّلنا النور يشعّ في جهتنا فقط تكوّن لدينا مجال من النور يقع في محيط محدود ألا وهو « الشعور » .

على ان هناك تصورات وانفعالات نفسانية لا نريد ان نراها لانها تسبب لنا كدراً فلا يقع النور إلا عليها عندئذ ، في لمحات هنا وهناك ، ولكن لا يلبث ان يتلاشى تاركا اياها في الظلام مرة اخرى .

« وارادتنا المرض » هي من قبيل هذه « الشعورية المبكرة » من المظاهر النفسية ، ويمكن اثبات وجود هذه الارادة في بعض الاحوال وجعل المريض يعترف بانه شاعر بها كل الشعور .

قد نغش لو سمحنا لانفسنا ان نقيم وزناً للعبارات الدقيقة التي يستعملها هؤلاء « العصبيون » عندما يراجعون الاطباء للاستشفاء إذ يطلب جميعهم ويلحّون في ان ينالوا الصحة والعافية . غير انهم انما يمثّلون دوراً تمثيلياً مع انفسهم ومع الاطباء لانهم لا يريدون ابداً ان يصحوا ويشفوا . وقد كان من اغرب ما رأيت في حياتي انني اثبتُّ

دون سابق انتظار ان « ارادة المرض » هـذه هي ارادة شعورية في حالة مريض كان يشكو ألما وعذابا مريراً . وقد علمت بعدئذ ان جميع هؤلاء « العصبيين » يتجاذبهم عاملان متضادان احدهما « ارادة الصحة » والآخر « ارادة المرض » ، وجميعهم بلا استثناء يخشون في السر ان يفقدوا مرضهم هذا .

فما مصادر هذا السرور الاحمق بالمرض بل « ارادة المرض » هذه التي يصعب علينا فهمها ؟ فوراءها دوافع اكثر مما نظن اول وهلة . ويجدر بي ان اقدم امثلة عليها ومعها بعض مظاهر لهذه « الارادة المرضيه » من اختباراتي .

ابدأ بطبيب كان قد وقع في ورطة مؤلمة . ولم يكن ليستطيع الجلوس او المشي . وكان إذا جلس على الكرسي شكا من ألم شديد ينخره فكان يضطر الى ان يقفز من مقعده صارخا ، وإذا مشى شعر بألم في اخمص قدميه ، فكان يسير كالاعرج في الطريق بكل مشقة . وكان هذا المسكين يضطر دائما الى ان يقف في عيادته الطبية اثناء مداولاته وكان يضطر الى ان يدور على المرضى وهو يركب عربة جالسا على فراش وثير . وكان ألمه يزداد كل يوم وتتضاعف ارتباكاته ويجابه صعوبات ومشاكل جديدة فيحتاج الى اعمال فكره لحلها ، اضف الى هذا جميعه انه كان مضطراً الى ان يخفي الآمه هذه . وقد استحال عليه ذلك في النهاية فصار يجلس بحذر شديد على وسادة وثيرة على الكرسي في المطعم ، ولم يكن ليستطيع ذلك إلا في ايامه الفضلى .

ولجأ هذا المتألم الى معالجة طبية بشّرت بنتائج طيبة . فصار يجلس

مرة ثانية واصبح يمشي بسهولة يوماً بعد يوم . وقد تبادر الى الذهن انه سر ولا شك لخلاصه السعيد من آلامه وقد كان بالتأكيد يسر في بعض الساعات كالرجل الذي يتألم من ضرسه ثم يسر لتخلصه من ألمه عند خلاصه . ولكنه اعترف بصراحة انه كان يسمع اصواتاً تقول له ما يشبه هذا الكلام « ان من المحزن ان تزول شكواك القديمة العزيزة ، لانها لم تكن بهذه الدرجة من السوء ، لقد عشت سنيناً عديدة ، وانت تشكو المرض ، فكان مرضك صديقاً مخلصاً لك » .

ويظهر مرض هؤلاء في احلامهم مرموزاً اليه بصديق . فيحلمون انهم سوف يفقدون صديقاً قديما — ومع انه كان قد آلمهم حقا — إلا انه كان اميناً مخلصاً لهم كل الاخلاص . ولهذا فهم يعتبرون مداواتهم اعتداء من الطبيب على اعز ما يملكون الا وهو مرضهم . ويحلمون ايضا ان كنزاً غاليا سوف يسرق منهم ، إذ يعتريهم دائما الخوف من زوال هذا المرض العزيز عليهم . ويظهر هذا واضحا في احلام اخرى . فقد قال لي احد مرضاي في اول يوم عالجته انه حلم بان هناك مؤامرة تحاك لاغتيال الملك (الفونسو) وانه قام من الحلم مذعوراً يخفق قلبه . وقد كانت تذكاراته مع الملك الفونسو عجيبة جداً . إذ انه ولد في ذات اليوم الذي ولد فيه الملك الاسباني وكانت عائلته تدعوه احيانا كثيرة بالبرنس الفونسو . فكان « الفونسو » الذات الثانية التي تملكته وسيطرت عليه وكان مرضه في الحقيقة كالملك بل ملك مستبد مطلق ، إذ كان يشكو من حالة عصبية اجبارية ، جعلت حياته عذابا مستمراً ، فلم يكن ليستطيع الاكل دون ان يقوم بامور

معقدة قبل الاكل ولم يكن يخرج من بيته قبل ان يدور فيه دورة خاصة على نظام خاص . وكان وهو خارج بيته يشكو من خوف عند جذب محفظته او منديله كأنه يفقد شيئا عزيزاً وهكذا يبتدىء بعد نقوده وتفتيش ثيابه وينسج على هذا المنوال مدة غير يسيرة . ومع انه كان لا يزال شابا فان حالته لم تسمح له باتمام دروسه فكان بائسا منهمكا في مرضه ، في حين كان رفقاؤه قد اصبحوا اطباء يشغلون مراكز هامة .

وهذا الرجل الذي كان يبكي وينتحب ، ويدعي انه يائس (وقد يكون كذلك في الحقيقة) تملكته « ارادة المرض » حتى ان فرائصه ارتعدت من الليلة الاولى لخوفه على مرض « الملك الفونسو » .

وقد اعترف لي هذا الرجل الذكي فيما بعد انه كان يكلم « مرضه » في احاديث طويلة صارخا « دعني ايها المرض اعيش ! دعني اعيش » .

وكان الدافع لمرضه بغضه الشديد لوالده ، الذي لم يلتفت اليه التفاتا كافيا ولم يعبأ كثيراً بنجاحه الباهر في المدرسة الثانوية بل اعتبر ذلك امراً عاديا . وكاد هذا الشاب الذكي ذو المستقبل الباهر يقضي على حياته من جراء غضبه الذي تراءى له في فقدان عطف والده عليه من جهة ، وفي ميل الى تعذيب نفساني فيه لان يقاص نفسه على تفكيره الخاطىء .

واليك مثلا آخر احدث مما مر . ذلك هو مريض كان يشكو من حالة تهيج عجيبة وكان مجبراً على ان يركض هنا وهناك طول النهار

ولم يكن ليجد راحة في اي مكان لا في العمل ولا في الكتب ولا في التسلية بل كان يعيش عيشة مضطربة قلقة لا تستقر على حال ، يزعجه تأثر ويقلقه اخر وكان يُساق باعمال قهرية مختلفة فلم يكن يصلح للقيام باي عمل او مهنة . وقد حلم في الليلة الاولى التي جاء يتعالج فيها ما يأتي قال لي : « كنت في باخرة فنظرت الى البحر فكان هائجاً ثائراً وقد اشتد النوء فكان هديره يدوي في رأسي . ثم شاهدت متأسفاً ان البحر اخذ يهدأ . فقلت لنفسي من الخسارة ان ينتهي هذا النوء الجميل . إذن ستصبح السفرة مملة وعلى وتيرة واحدة بعد الآن . » وكانت سفرته في الحلم هذه هي سفرة حياة ذلك المريض .

لقد كانت حياته حينئذ كالبحر الهائج ، تتأثر ابداً بتأثرات جديدة ، وبسياحات وتغيرات مستمرة . فهل ينتهي جميع هذا ويتغير ؟ وهل تصبح الحياة سلمية كالسفر في بحار هادئة ساكنة ؟ ظهر هذا مملاً في الحلم فخطر بباله في اليوم الثاني ما يأتي : « ان الحياة مع المرض جميلة جداً . فهي تسبّب لي آلاما لا تنتهي ولكنها تحدث في حياتي تغييراً مستمراً بل تصبغها بلون خاص ، اضف الى هذا انها تجعلني شخصاً يهتم به الناس ويرغبون فيه » . هذه الفكرة كانت تسبغ عليه في السرّ سروراً دائماً . لقد كان مرضه فريداً في بابه وليس هناك على ما اعلم انسان يشكو مثل هذا المرض .

ولكن هذا الافتخار وحده لا يعلل «ارادة المرض» فهناك دوافع اخرى كثيرة تعلله إذ يستطيع المتألم بواسطة مرضه ان يتسلط على محيطه ويخضع الجميع لخدمته فهو يطلب المرة بعد الاخرى خدمات

صغيرة وكثيرة ويستدر العطف عليه وهكذا يجتذب المحبة على دفعات صغيرة . وافتخاره بمرضه لا يحتمل اية مقابلة بين آلامه وآلام غيره . والنكتة الشهيرة عن الرجل العصبي المزاج ، حقيقة لا مراء فيها فقد قال لآخر عندما تألم لعذابه « انت ايها الرجل الصحيح لا تخجل ، كيف تجسر ان تقابل مرضك بمرضي ! » .

ولكن اهم دور يلعب هو في التضحية اللذيذة ذات المغزى الديني ، فان هؤلاء المرضى يشعرون بانهم شهداء عظماء وهذه الفكرة تسبغ عليهم سروراً بالغاً يعادل آلامهم ، والسرور عند الالم (الماسوشيزم) حالة شائعة اكثر مما يظن الكثيرون . هذه الفائدة في السرور هي التي تعوّض المتألم المعذب عن آلامه وحرمانه . فحتى الالم يمكن تحويله الى لذة وسرور . وكثير من الشهداء جلب لنفسه سروراً بالغاً اختبره عن طريق آلامه ، يضاف الى هذا الدافع الديني — وهو ان تعويضاً تاماً ينتظرنا في السموآت لجميع ما حرمنا منه في هذه الحياة الدنيا ، بل هو تعويض مضاعف ، إذ هو هناء دائم ، يقوم مقام جميع المسرات التي فقدناها في هذه الحياة ، وجميع ما عجزنا عن القيام به ، بل وجودنا البائس المشبع بالآلام المعذبة ، والسلسلة التي لا تنتهي من انكار الذات . وعندما نوازن بين آلام الشهيد وافراحه نرى ان كفة الالم تنخفض وتشيل الاخرى . ولا شك في ان آلامه سيعترف بها يوم الحساب العظيم . وهكذا يعوّض المريض المسكين عن آلامه الدائمة تعويضاً سخياً ، ونحن نرى في محاولة الوصول الى عالم افضل لوناً قوياً من المثالية ، تجهّز المجاهد بباعث قوي يدفع به الى العلاء . فاذا كانت آلامنا

الاعتيادية مريرة ، وإذا كان الرجال العظماء يزدادون عظمة عن طريق الالم فقط ، كان المبدأ اشد انطباقا على الالم الذي يشكو منه المريض العصبي . وهذه الآلام لها اثرها التكويني في النفس ، وافتخار هؤلاء الناس بآلامهم ومقدرتهم على محبتها يصبحان مفهومين .

يقول نوفالس « لا شيء يفرّق الانسان عن الطبيعة اكثر من اكتشافه فكرة محبة الالم والعذاب » . فالمتألم يرتفع في مرضه عن مستوى العامة بل فوق الطبيعة التي انما تقدر قيمة الصحة ومسرات الحياة . فهو يستمد السرور من مصادر جديدة ، وهو يكتشف امكانيات لم يعرفها من قبل في عالم اللذة ، وهكذا يوسّع حدود الانسانية وهو ذلك المكتشف الاتوقراطي لافراحه واتراحه وهكذا يكاد يقترب من مصاف الآلهة .

دلتني مرة احدى السيدات الرشيقات الذكيات من ذوات الملاحظة الدقيقة الى قول (لجوته) قالت : « باحثت نفسي وقد تخلل ذلك انغام لطيفة فتمايلت نحو النوم والالم والحنين ، بل نحو كل رغبة تجيش في نفسي . هكذا تحوّلت آلامي الى سرور ، واصبحت انفعالاتي المكدرة انفعالات متناسقة متآلفة » .

فما معنى قولها « باحثت نفسي » ؟ هنا يكمن اللغز ، هنا ينكشف السر العظيم « لارادة المرض » . فان المتألم يكلم نفسه ويناجيها اي يزور (دار تمثيله) الذاتية كما سمّيت هذا المظهر . وهذه الدار تقدم له اجمل الروايات وادهشها ولهذا فليس هو في حاجة الى مشاهدة غيرها . فهو المتفرج على آلامه واتراحه وهو النقّادة وهو الشاعر

وهو الممثِّل ، وهو جميع هؤلاء في شخص واحد . وهو يسر من هذه الدار التمثيلية فهي تمثل له فصولاً متتابعة فيسمح لنفسه المرة بعد الاخرى بترتيب ليلة سمر يدعو اليها الاطباء وافراد عائلته .

وفي صميم صاحبنا هذا بعض صفات برنارد شو الكاتب الارلندي الشهير الذي يهزأ من متفرجيه . فهو يبكي بعين ويضحك بالاخرى . وهنا يقع الخطر الاعظم لان الرجل الصحيح كالنوتي الماهر الذي يمسك الدفة فيدير سفينة حياته بيد حازمة ويعيِّن سير نهاره بنفسه . إلا ان مريضنا لا تنتابه حالات ذهنية خاصة فحسب بل تتملكه هذه الحالات . فيفيق مبكراً مستغربا ليعرف اي نوع من النهار ينتظره ثم يقف مندهشاً امام تلك القوى السرية التي جادت عليه (بيوم ابيض) . وفي اليوم الثاني يئن من هذه القوى العجيبة التي عملت بالسر وخصّت ذلك النهار « بالسواد » فيتقبل ايامه واعراض مرضه وآلامه ، كما يتقبل القضاء فيهمل بل ينبذ النزاع والقتال فهو نقاد « دار تمثيله الذاتية » نسي انه قد يكون الشاعر بل المبتدع ونسي انه كان يتمتع مرة من الزمن « بارادة الصحة » . وقد فقد قوة العمل الان لان العمل يمنعه من زيارة (دار تمثيله) فلا يبقى له وقت للتفكير ، والتأمل .

ولهذا اطلب منكم ايها المرضى الذين سدّت في وجوههم ابواب الحياة من جراء « ارادة المرض » ان تتغلبوا عليها « بارادة الصحة » . ان الحياة تجلب معها آلاماً كافية لترفع نفوسنا ، بل حرماناً كافياً ليؤذينا ، بل احزانا ومتاعب كافية .

تعلموا ان تحبّوا الحياة وانتبهوا كي لا تفوتكم مسرات الحياة الصغيرة . لا تعفوا انفسكم من الحياة ، ولا تجعلوا من انفسكم آلهة لعالم من المرض خلقتموه انتم بانفسكم . ما هذا العالم المضحك ، المشتت الباطل ؟ اصبروا ، وانتظروا لتروا ما تجلبه لكم الحياة . ان الساعة آتية لكل واحد منا حين يزاح الرباط عن اعيننا فتنفتح امامنا مناظر منعشة لافق مجهول وستفتح العينان يوما ما والدهشة تعرو الواحد منا فيقول « لم اكن ارى الحياة جميلة بهذا المقدار ! » .

وهناك رباطات واغطية كثيرة ، بل هناك غمائم ، وهناك (تلسكوبات) مشوهة ونظارات قذرة تمنعنا من رؤية العالم رؤية واضحة . وإذن يجب على كل واحد منا ان يتعلم قبل كل شيء ان يرى بوضوح وجلاء .

الفصل الحادى عشر

الارادة للقبح (نريد ان نقبح)

إن للارادة قدرة على تحويل الجسد من حالة الى اخرى ، فان الناس الذين يرغبون رغبة اكيدة في ان يكونوا جميلين يصبحون كذلك في النهاية . و « ارادة الصحة » هي جزء من الصحة في حين ان « ارادة المرض » هي اساس كل شكوى عصبية . يشير (كوهنستم) الى الشعور الوجداني بالصحة ذلك الشعور المضطرب في العصبي المزاج . ولكن هناك ايضا الشعور الوجداني بالجمال ، ذلك الشعور الذي يصبغ شخصية الفرد بطابع خاص . فهناك امراض يفقد الناس فيها شعورهم الوجداني بالجمال . مثال ذلك السوداويون فانهم يسرون سراً لاهمال مظهرهم الخارجي ، فتتدلى شعورهم متشعثة ، ولا يغسلون اجسادهم ، وتتشوه عيونهم من جراء البكاء والنحيب . ويحولهم المرض من شخصيات جذابة الى اناس قبيحي المنظر . ومتى ابتدأوا يبتسمون مسرورين ، او اخذوا يسرحون شعورهم او يلبسون بدلة جديدة ، كان ذلك من العلامات الاولى لاستعادتهم صحتهم . فيعود اليهم كبرياؤهم ويتنبه فيهم (شعورهم الوجداني بالجمال) .

وبعض هذه الامراض العصبية تجمّل المتألم الذي تتحول ملامح وجهه من جراء الالم ، ولكن هناك نوعا اخر من هذه « الامراض

العصبية ، التي تظهر نفسها في القبح . وهذا القبح مقصود ويقوم بمهمة سرية . إذ يقوم بوظيفة الدفاع او القصاص ، او الاختبار او لمجرد الهوى . وكثيراً ما يكون هذا القبح المقصود وسيلة الى الدفاع ضد ما تتعرض له من التجارب . فتلك البثور الغريبة التي تشوّه جلد النساء الجميلات من هذا القبيل . وتتكدّر المصابات عادة من مثل هذا التشويه ولكن لا يخطر ببالهن انهن هن اللواتي يحدثن هذه البثور بمهارة عجيبة بل هن اللواتي يضاعفنها . وقد عرفت سيدة تشوّه وجهها بمرض (القوباء)[1] يوم كان زوجها يقضي واجبه في خدمة الجندية. ولما عاد ، اختفى ذلك المرض حالا مع انها كانت قد تداوت وتعالجت عند كثيرين من الاطباء ولكن دون جدوى . وقد ظهر فيما بعد ان تلك السيدة كانت تحك وجهها باستمرار الى ان ظهرت عليه اخيراً تلك البثور . ولم تكن تشعر بانها انما كانت تدافع عن نفسها لكي لا تقع في التجارب التي تقع فيها النساء اللواتي ينفصلن عن ازواجهن وقتاً ما .

واغرب من ذلك مَثل البثور في وجه صبية . وقد استلفتت هذه البثور انتباه كثيرين من الاختصاصيين الذين عجزوا عن معالجتها. وكانت تلك الصبية ابنة احد اصحاب الملايين وقد استسلمت لمغازلة موسيقي فقير . وقد تلوفيت العواقب ، ورتّب العقد ، إذ هدّدت الصبية بالانتحار إذا لم يعقد لها عليه ، وكانت هي وحيدة والديها . وظهر بعد

---

(١) داء يظهر في الجسد يتقشر ويتسع وهو معروف (بالاكزيما Eczema) .

ذلك ان حبها انما كان منشؤه تحدّ ، القصد الوحيد منه قصاص والدتها لان الابنة كانت تعتقد ان والدتها لم تكن تعطف عليها . وقد وقعت مريضة وأرقتْ واصابتها نوبات عصبية فجاءتني للتدواي ، وكان منظرها مخيفاً وقد غطت بقع حمراء جبينها بل جميع وجهها وسال من بعض هذه القروح القيح ، وظهر بعد ذلك انها كانت تحكّ وجهها في الليل الى درجة تعذّرت معها مداواتها، واكدت لي ان الأكلان كان يحرمها من النوم ، ولكنها ظلت تحك وجهها حتى بعد ان كانت تتناول جرعة المنوّم كما كانت تفعل في اكثر الاحيان . وقد عاشت في حالة تخدير دائم . وكان خوفها من السهر اعظم من حاجتها الى النوم ، وكنت ارى انها انما كان تقي نفسها من عناق خطيبها لها ، وانها كانت تفضل لو ينفسخ العقد ويتركها وشأنها ، اما هو فظل اميناً لها بالرغم من هذا التشويه الذي عجز جميع الاختصاصيين عن مداواته ، ولم يخطر بباله قط ان ينفصل عنها . ولكي نحكم على الطبيعة المزدوجة للمصابين بالهستيريا علينا ان نعتبر النزاع بين الشعورية والشعورية المشاركة ، إذ عندما كان الامر بين خطيبها ووالدتها مقتصراً على اختلافات مادية كانت تهددهم بالانتحار لو منعوها عن الزواج منه ، اما باطنياً فقد كانت ترغب في الانفصال عنه بل ارادت ان تنفصل عنه بتشويه ذاتها ، ولكنها لم تكن تشعر بذلك ، وكان هذا نزاعا عظيما لا مهرب منه وقد كان هذا الاختبار قد الف رابطة متينة بينهما .

غير انها كانت حسنة الحظ في مصابها ، فان الموسيقي كان رجلا ذا اخلاق طيبة يحبها حباً حقيقياً وكان يرغب في تزوجها حتى ولو

كانت فقيرة ، كما كان سيتبين ذلك فيما بعد ، فقد نجح وذاع صيته وصار كفؤاً لها . وشفيت هي من حالتها العصبية ، في الوقت ذاته واختفى ارقها حالا ، وتحسنت معه تلك البثور التي سببت لها تلك الآلام ، وقد كان ذلك ايضاً اختباراً لعشيقها فقد اخذت تسائل نفسها ، هل يظل يحبني يا ترى لو تشوّه وجهي الجميل ؟ فكان جوابه على ذلك واضحاً . ثم تستمر في السؤال فتقول وهل يظل يحبني لو اصبحت فقيرة ؟ وقد حمل اليها القدر جواباً صريحاً حتى على هذا السؤال ، إذ اضاع والدها الغني جميع ما يملك ، ومع هذا ظل خطيبها مخلصاً لها بالرغم من خسارتها واصبح القبح حينئذ غير ضروري وشفيت هي من البثور بسرعة عجيبة بعد الزواج .

ان طبيب الامراض العصبية يحتاج الى مدة طويلة ليكتشف في كل مريض (ارادته للمرض) وما يرغب فيه كل مريض من الربح من جرّاء المرض . وكل حالة عصبية لها قصد محدود ، وهي تجازي صاحبها بقسط من السرور يمكن ان نعبّر عنه (بالتلذذ بالآلام) او (بالامتياز الناتج عن الآلام — ميزة الالم) . حتى ان القبح المقصود يسبغ على صاحبه لذة بل يمكن اعتباره نوعاً من القصاص الذاتي لما يرتكبه الفكر من الخطايا ، على ان التوسع في هذه الافكار قد يضللنا فهناك نوع من القبح يظهر في اعوجاج الوجه وحركاته المضحكة والتوائه . وانما اشير هنا الى الانواع الكثيرة من الغمز العصبي فكثير من الوجوه الجميلة تتغير كثيراً عند حدوث هذه الحركات فاللسان يمدّ والانف يلتوي والعيون تنقلب والفم ينحرف . مثل هذا القبح يمكن

اعتباره مقصوداً . وليس من السهل ان نرى الدافع لهـــذا التشويه ولكنني لم ار حادثة واحدة لم يكن فيها هذا القبح المقصود فعّالا ومشتركا مع غيره من العوامل في احداث تلك الصورة المعتلة من القبح ، وكثير من المصابين بالحالات العصبية وخصوصاً النساء يتخذن وضعاً في مرضهن يصبحن معه قبيحات كل القبح، فانهن يقبضن انوفهن ويشدّدن على شفاههن ويصبح صوتهن ضعيفاً خشناً وتهزل اجسامهن لامتناعهن عن الطعام ، وهكذا تنتهي المرأة الجميلة الى ان تصبح قبيحة دميمة .

ومن هذا القبيل الانوف الحمراء والايدي القـــاسية والاجفان الملتهبة . ومن العجيب ان نرى كيف يعود الجمال بعد الشفاء وكيف يظهر هذا الجمال في البدء متواضعاً فاتناً ، ثم يجرؤ على الظهور شيئاً فشيئاً الى ان تنقلب (الارادة للجمال) الى (ارادة للقبح) .

والقبح النفساني قد يكون مقصوداً ايضاً فكثير مما هو وحشي وتشمئز النفس منه في خلق الواحد منا ليس سوى وضع من الاوضاع بل هو تمويه يخفي فينا ناحية لطيفة مقبولة . فكلمة « Hässlich » التي تعني « قبيح » ليست مأخوذة من « Hassen » التي معناها « يكره » دون سبب . فالشخص الذي يحب والذي يسر نحبه يرغب دائماً في ان يكون جميلا في حين ان كره الواحد منا نفسه او غيره يجعلنا قبيحين .

وحيثما يكون الكره يتهدم هيكل الجمال بل يصبح اطلالا دارسة . فالحب والجمال صنوان يسيران جنباً الى جنب كما يسير الكره مع القبح .

هذا ما جعل العالم قبيحاً اليوم ، ولا يمكن ان يصبح جميلا إلا إذا

جعل دين الحب جميع البشر اخواناً، حينئذ تتلاشى العداوات وينقلب القبح جمالا إذ في العالم كثير من القبح المزيف . وليست الأمراض العصبية سوى ردود فعل نقوم بها لصد عادية الحوادث الخارجية . فعالم الصدق والمعرفة الذاتية يجب في الحقيقة ان لا يشتمل على امراض او حالات عصبية وما ينتج عن ذلك من القبح المقصود . والاشخاص غير المسرورين يعبرون عن عدم سرورهم بالقبح ، ونحن بحاجة الى قسط اعظم من السرور ، وهذا يجعل طرق الالم الملتوية التي نعبر عنها في امراضنا العصبية في الافراد وفي الامراض الاجتماعية في الجماعات امراً غير ضروري ، ونحن بحاجة الى جنس بشري يتحلى بالشجاعة ويجابه نفسه ويعترف بما في نفسه من الجمال والقبح، البشري والسماوي والنزعة الالهية والحيوانية .

ان الذي نستطيع ان نتغلب عليه هو الذي نعترف به ، ومعرفة الذات هي مفتاح الحكمة والسرور والجمال .

الفصل الثانى عشر

عالم الوهم

تتكسر ارادة العصبي ـ «النفروز» على صخور الحقيقة الحديدية . فان حياته جميعها هي نزاع مع الحقيقة ، وتدفعه الهوة المنفصلة بين الجهود وما ينجزه الانسان ، الى عالم الاحلام حيث يندمج الفضاء والزمن والماضي والمستقبل في وحدة لا رسم لها . وتنمو قوة عالم الاحلام هذه شيئاً فشيئاً الى ان تنتصر في النهاية على عالم الحقيقة . ولا يسمح بالحقائق في ذلك العالم بل تلغى الحقائق التي لا تتناسب مع مطالب ذلك العالم الغاء استبداديا .

واليك هذا المثل فهو يبين كيف يلغي العصبي (النفروز) هذه الحقائق . حمل احد المرضى الذين كانوا يراجعونني ورقة ممزقة قذرة مدة اربع سنوات وكان ينقلها بحذر من بدلة الى اخرى ولم يكن ليتركها . اما محتويات تلك الورقة العجيبة ، فلم يشأ ان يقرأها مرة واحدة ولكنه كان يحملها معه (بصفة آليه) كما قال لي . وكانت هذه الورقة مسودة كتاب كان كتبه الى احدى السيدات ، وسألته إذا كان لهذه الورقة اي مغزى خاص عنده ، فانكر ذلك وادعى انه يجهل السبب الذي يحمل من اجله تلك الورقة طول النهار وكل يوم .

واخيراً لما تعذّر عليه الاستمرار في تضليله اوقف الرواية التي

كان يمثلها لنفسه ولكنه اعترف بمصدر آلامه . كانت تلك الورقة كتاباً كتب لصبية يوم زواجها وقد اشتمل على نهان ، وذكريات ماضية ، وانكار بل شكوى ، فقد كان احب تلك الفتاة حباً شديداً ولم يكن يملك قوة ارادة يستطيع معها ان يجذبها اليه . ولم يكن في امكانه بل لم يشأ ان يقول كلمته الاخيرة ، ورجا ان تنتظره الفتاة فكان يفهم نطق حبه وغرامه الهادىء . فلما فقد هذه الصبية زال السرور البهيج من ذلك الشاب . ولما عجز العالمَ عن ان يقدم له شيئاً غرق في عالم ثان — وهو عالم الاحلام . فكان قد خسر العالم الاول لخطأه ولتردده الجبان، ولحيرته القصوى ولمبالغته في الاهتمام بعائلته. فخسر بذلك العالم الى الابد .

قلت الى الابد ؟ ولكن في عالم الحقيقة فقط ، اما في عالم الوهم والخيال فان الصبية لم تزل عذراء حرة لم تتزوج ولم يكن بعد قد ارسل لها كتاب الوداع . فكان يحمل رسالته اينما ذهب اذ كان قد الغى حقيقة زواجها ، ولم يكن لهذه الحقيقة اثرٌ في حياته . كان هذا عكس الطريقة التي يسميها فرويد « الاستبدال » . ان الذي يستبدل لا يعرف في حالة شعوره ما يتذكره تماما في عقله الباطني . خذ هذا المثال : ابنة نسيت حادثة محزنة مكدرة جرت لها ، تتلخص في ان احد المعلمين حاول اغتصابها . ولم تتذكرها في صحوها كأنها لم تحدث، ولكنها كانت تذكر تلك الحادثة في احلامها ، او تحت تأثير التنويم المغناطيسي ، وفي نوباتها الهستيرية وكان يعروها ذات الانفعال الشديد

بالقلق . ذلك بأن عقلها الباطني اللاشعوري يعرف ما لم يشأ عقلها الشعوري ان يعرف .

اما حادثة المريض الذي نحن بصدده فتختلف عن ذلك . ذلك بانه فقد عروسه في حالته الشعورية . اما في عقله الباطني فان امر زواجها كان قد الغي .

ولكن ما فائدة هذه الرسالة اذن ؟ كانت هذه الرسالة البقية الباقية من (الحقيقة) التي استعملها ذلك العصبي (النفروز) ليحرك بها جلباباً من الخيال . ونحن لا نزال نراقب مرة بعد اخرى في هذه الاعراض المتجددة بقايا (عالم الحقيقة) بل ذلك الفقر المدقع ، الذي يخلق منها العصبي عالماً واسعاً من الخيال .

والحادثة التالية تبين بصورة اشد وضوحاً قوة الخيال الابداعية ، التي خصها العالم البحاثة الفرنساوي ريبو بكتاب كامل . تلك قصة محبين كانا يرغبان في ستر حبهما ، فقررا ان يضللا من حولهما فاخترعا لهما شخصاً ثالثاً . وكانت الام قد داخلها الريب في امر العاشق من زمن بعيد ، وكان لهذا العاشق اسباب قوية تدعوه الى اخفاء حبه مدة اطول من الزمن . وكانت المحبوبة ارملة صبية تعيش مع والدتها وهي سيدة غيورة غيرة شديدة . وقد قالت لوالدتها انها تعرفت باحد الضباط المهندسين واسمه ماير . وصارت تتناول رسائل ورسوماً من حبيبها المستر «ماير» . اما حبيبها فقنّع صوته وادعى انه المستر «ماير» وطلب ان يكلمها بالتلفون . واجتمعت به وضربت له المواعيد ، واخيراً غارت الام من المستر ماير هذا ، ولم تعد تشك في الحبيب

الحقيقي ثم حدث في اثناء ذلك شيء عجيب ففي يوم من الايام اصبح مخترع فكرة « ماير » يغار من المستر « ماير » الموهوم ، وصار يسلك احياناً بل يفكر كما لو كان المستر ماير حقيقة موجودة . وهكذا تسلل بينه وبين محبوبته شيء عدائي منفّر. فكان هناك اسم واحد وفكر واحد وخيال واحد ، ثم اكتشفا سوية وقد تملكهما الخوف انهما لا يستطيعان ان يلعبا بالارواح ، إذ من يضمن ان يخرج لهم مستر «ماير» حقيقي من بين عالم الوهم . وقد لاحظ المحب والقلق والشك يعروانه ان حبيبته ايضا كانت تلعب دورها باتقان وبلا تصنع مرموق — وكانت تمرّ به فترات يشك فيها فيما إذا كان المستر ماير هذا ليس شخصية حقيقية ، وانه يرتبط مع حبيبته بمواعيد يقابلها فيها ، وبالاختصار فان الخيال نزع الحياة ولونها وتداخل في حياته الحقيقية ، ولما شعرا بالخطر ، لم يكن لهما بد من ان يهجرا فكرة « ماير » بالمرة .

واليك حادثة ثالثة وهي من اغرب الحوادث . روى لي شاب فنان على جانب من الذكاء قصة حب مؤثرة بديعة حدثت في (ابازيا). اشتملت على وصف ضوء القمر والتجديف والقبلات والوعود والانفصال والهجران والآباء المخاصمين والعائلة الارستقراطية ، والعقبات التي يستحيل تذليلها . فاصغيت اليه بشوق زائد وسررت بان ارى ان عصرنا الجدي لا يزال فيه هنا وهناك مسحة من عالم الحب والمغامرة التي انقضى عهدهما . ولم يكن هناك اي دليل على ان الرجل كان يضللني ثم جاءني بعد ذلك بسنة . فلم تكن كلمة من الكلمات التي تفوّه بها صدقاً . بل كان كل ما قاله وهماً ومن نسيج الخيال . وقد كان

رأى السيدة عن بعد فقط . وامتع ما في روايته انه غشّ نفسه فاعتقد بحدوث القصة ورواها لي بنية صادقة معتقداً بحدوثها ، وعاشت القصة مدة سنة في خياله ، وفي نهاية السنة شعر بحاجته الى حزن عميق للعمل الابتداعي الذي كان يقوم به كما كان يحتاج في البدء الى حب عظيم ، فقرر ان يكتب الى حبيبته كتاباً يطلب فيه يدها . ولم يكن في استطاعته ان يعيش بدونها ، إذن لا بد من الوصول الى قرار ، وكانت قد فترت همته مدة سنة دون ان يراها ، وكان ذلك فوق طاقته ، ولم يكن يستطيع ان يتحمل العذاب . فبعث بالبريد كتابه دون عنوان ولم يكن على الغلاف شيء . وانتظر جواباً لكتابه ومرّ اسبوعان فلم يصله جواب طبعاً . فجلس وكتب لنفسه كتاباً بخط مقنّع — وكان الجواب بالرفض من حبيبته الموهومة ووضع الكتاب في البريد ، وعنونه باسمه ، وانتظر اربعة وعشرين ساعة في قلق أليم . واخيراً جاء الكتاب (الذي كتبه بنفسه) فأغرقه الكتاب في لجة عميقة من الحزن واخذ يقرأه مئة مرة لعله يجد فيه كلمة سلوى . ولكن دون جدوى . واخيراً قرر الانتحار ، ومثّل دوراً هزلياً . فصوب المسدس بعزم اكيد الى صدغه . في هذه الحال المزاجية نشأ عمله الفني الذي اضطره لكتابة رسالته من اجل تحرير نفسه ، ثم افاق من غفلته وعرف انه انما كان يمثّل تمثيلا . فخجل واضطر ان يخبرني الحقيقة فاعترف بأنه غش نفسه في البدء ثم غشني . الى مَ كان هذا الرجل يسعى ؟ انه كان يقوم بتجربة ؟ كان يشتهي الحياة ويتحرق شوقاً اليها . وها انا اتثبّت للمرة الثانية من حقيقة قلتها سابقاً وهي ان — العصبيين

(النفاريز) لا يمرضون من اثر ما يختبرونه بل مما لا يختبرونه . انهم يخلقون لانفسهم عن طريق آلامهم — اختبارات ، ومهيّجات واحزاناً وهموماً ويأسا — مما لا يستطيعون ان يعيشوا بدونه .

نحن نفهم حاجة المصابين بالهستيريا للمناظر التمثيلية كل التمثيلية فان حياتهم تُمر بهدوء ملحوظ وصفة هادئة . لهذا يقذفون بأنفسهم في عالم الخيال وينجزون (الحقيقة) عن طريق الخيالات التي تنشأ في عالم احلامهم . والحدود بين المظهر والحقيقة ، تتلاشى عندهم ، ولا يبقى لها اثر ، فهم لا يكذبون حتى عندما يظهرون كذلك ، انما هو صدق عالم ثان هو العالم الحقيقي الوحيد في نظرهم .

الفصل الثالث عشر

ضعاف الارادة

« لك ان تسألي ما تريد ولكن لا تكلف ارادتي شيئا ، إذ ليس لي ارادة ما » — هذا ما قاله لي احد « العصبيين » الذين كانوا ينشدون الصحة والعافية . وهذه هي القصة القديمة ذاتها . بل السؤال الازلي . هل يستطيع الطبيب ان يدخل في روع المريض ارادة جديدة ؟ وهل يستطيع ان يحول ضعاف الارادة الى اقوياء ؟ وهل ضعف الارادة خصلة تولد مع المرء ام هي تنمو وتزداد ؟

إن المرضى يرغبون من الطبيب عادة ان ينوّمهم تنويما مغناطيسيا « ليقوي ارادتهم » او ان « يستهويهم بطريقة من الطرق » إذا كان المريض في حالة نوم مغناطيسي . إن هذا امر يدل على فهم مغلوط في المريض العصبي ، لان المرض إنما ينشأ عن نزاع بين ميلين متضادين فالميل الاول يظهر باصرار المريض على شعوره بالالم ، وهو المظهر الغريب الذي وصفناه « بارادة المرض » والاخر يرمي الى قهر المرض ويظهر نفسه في « ارادة الصحة » . (وارادتا الصحة والمرض هاتان) تتنازعان السيادة على العقل وترميان الى التسلط عليه . والتنويم المغناطيسي يقحم نفسه بلا تبصر في هذا المشهد، دون ان يعرف القوى الفعّالة او دوافعها الباطنية . لان « ارادة المرض » تتأثر من دوافع مختلفة ولا يمكن ان تقهر إلا بعد اكتشاف دوافع المرض .

وفي الحق ان هذا الامر الذي له مغزى خاص عند جميع العصبيين يرينا مثلا من امثال انفصال الارادة، ذلك بان العصبي لا يستطيع ان يكون رجلا قوي الارادة ، لان ارادته مجزأة مقسمة ، فليست له ارادة واحدة بل له عدد منها .

والحقيقة ان جميع الناس في الاصل متساوون في كمية ارادتهم ، فقويُّ الارادة يستطيع ان يستعمل قواه المشتركة إذ لا يتوجب عليه ان يحارب الارادة — المعاكسة — اما ضعيف الارادة من الرجال فان ارادته — وارادته المعاكسة هما في نزاع مستمر .

دعنا نبيّن لك هذه الحالة بمثل حي ، شاب ذو مواهب ممتازة واسع المعرفة والاطلاع يجد نفسه في حالة مكدرة .

وقد خطب ليتزوج ، وهو يحب خطيبته حباً جماً ، وينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي تجتمع به اجتماعا ابديا . على انه عاطل عن العمل في هذه الاثناء . وكان يعيش مع والديه وهو يفتش عن عمل ليتمكن اخيراً من الاقتران بمن يحب . وتمر الايام وهو لا يعمل عملا فينسى انه يعرف لغات عديدة ، وانه لا يستفيد من مقدرته الادبية ، ولا يفتش عن عمل بحماسة ، ينتظر ان تصدر ممن كان في مركزه . فهو يشعر ان ارادته مقيدة ، فلا يجهد نفسه حتى في ارسال انتاجه الادبي الى مجلة من المجلات . فاذا سمع او قرأ عن مركز خال ، ذهب ليطلبه ببطء وحذر ، بحيث يسبقه غيره فيأخذ ذلك العمل قبله . وما اغرب انتقاده المراكز الخالية ، اذ يقول لنفسه « هذا الاجر قليل جداً ، وذلك المركز بعيد ، او متعب جداً فهناك ابداً ميل معاكس . بل

تصوّر مصاعب تأثيث بيت من البيوت ، وما هي الامور التي يتطلبها (والغريب ان المحبين الحقيقيين يتغلبون دائما على مثل هذه العقبات ويشقون لانفسهم طريقا في حين يحتمي المترددون دائما وراء امثال هذه الصعاب ولذا يحجمون عن الاقدام واعطاء القرار) . فاذا فحص المرء حالتهم فحصا دقيقا ، ادرك وجود ارادة معاكسة فعّالة من السهل تعليلها . ذلك لان مثل هذا الرجل ، وهو طفل في جوهره ، فهو لا يزال يعتمد عـــلى والديه وعائلته واخوته واخواته . وهـو لا يستطيع ان يغادر السقف الذي يظلل ابويه . ذلك لان هذا الشعور بمساعدة والده له يدخل الى قلبه سروراً . ولما كان لا يزال طفلا فهو ايضا يسر لاهتمام والدته به . وبتعذيب اخوانه له وبقتال اخوته اياه . فهو لا يستطيع ان يعيش في جو غير جو والديه ، هـــذا ما تطلبه ارادته المعاكسة ، في حين ان ارادته الشاعرة تلح عليه ان يحرر نفسه من اقربائه لكي يصبح مستقلا . وليس حبه سوى محاولة منه للوصول الى هذا الخلاص . ولهذا يسرح في عالم من الاوهام يبعد به كثيراً ، فيسافر مع امرأته الى امريكا ، إذ يريد ان تفصل بينه وبين عائلته البحار الواسعة . او يتخيّل بيتا متقنا كاملا لا يسمح فيه لاي واحد من عائلته بزيارته فيه ، حينئذ تتداخل ارادته المعاكسة مرة ثانية فتقلل من قيمة عروسه ونجد فيها عيوبا . وتتداخل غرائز تعدد الزوجات ، فتحاول لعبتها الخطرة . هل يربط نفسه بامرأة واحدة مهملاً جميع النساء الباقيات ؟ هكذا تتأرجح ميوله اماماً وخلفاً وتكوّن منه في النتيجة رجلا ضعيف الارادة .

ان ما مر هو مثل عـــلى ضعف الارادة التي نشأت عن ظروف خاصة . على ان هناك في الوقت الحاضر نوعا من التربية ينتج ضعفا في الارادة كما يرى بوضوح . فهناك الوالدان اللذان يجهلان بان تربية الارادة والشخصية المستقلة بل الاستقـلال بكل معانيه، تمثل اهم عمل من اعمال التربية . إذ نراهم يطبعون دائما ارادتهم عـــلى الطفل ويحاولون ان يكبحوا جماحه، فيملون عليه كل طريق من طرق الحياة. وهناك اطفال يصعب كسر مناوأتهم فيظهرون ارادتهم ويحكمون البيت جميعه بالحيل او المرض. ومثل هؤلاء الاطفال المناوئين هم في الحقيقة النتائج الاصطناعية لهـــذه التربية . وهكذا ينشأون طغاة صغاراً في بيوتهم . ان الفكرة المغلوطة بـان الطفل يجب ان يدلَّل في اول سنة من سني حياته ، وان الواحد منا يجب ان يذعن له وان تربيته يجب ان لايفكر فيها ، وان لا تستعمل الشدة الى ان يذهب الطفل الى المدرسة كل هذه تؤول الى عواقب وخيمة . ان الطفل الذي فسد ولم يبق امل في اصلاحه، والذي تعوّد ان يفعل ما يريده في كل شيء ، لا يلبث ان يجد نفسه بعد حين اعزل امام قوة لا يفهمهـا ، فيلجأ الى المرض او (الشقاوة) كسلاح يظهر فيه مناوآته وانتقامه ، بل ثورته العلنية بما يقوم به من الاعمـال ، فاذا غلب على امره ، وقهر بالشدة والقوة فقد تقهر وتذل ارادته ايضا . ولذا يجب ان يربى الاطفال على مبادىء المحبة وعن طريقها ، ولكن يجب ان يشعروا دائما بانهم ليسوا اسياداً .

ويتطلع كثير من الآباء الى ابنائهم ويرجون ان تحقق آمالهم فيهم بل اغراضهم ومثلهم العليـا وينظرون الى طفلهم كفرد سينجح

بالقيام باتمام رغباتهم . فالاطفال اذن انما يكونون على حق عندما ينفذون جميع رغبات آبائهم .

مثل هؤلاء الاطفال يعجزون عن الاستماع الى صوت ارادتهم ثم يفقدون فيما بعد المقدرة على الوصول الى اي حكم او قرار . بل يحتاجون ابداً الى شخص آخر ليجد لهم ما يريدون عمله من الامور ، وليريهم ما يجب عليهم عمله ، وليقرر شؤونهم عنهم ، إذ يعجزون عن الوصول الى حكم بانفسهم ، فقد اعتادوا تلقي اوامر والديهم . إنما يقودهم الى هذا الخضوع للغير الشعور بالذنب والعقيدة الدينية المشوّهة التي يسيء الناس فهمها ، وما فيها من فكرة الشر الاصلية التي يبكر في التبشير بها ، تساعد كثيراً على ايجاد ضعفاء الارادة هؤلاء . وكلما كان استبداد الوالدين اشد ، صعب تحمله . وتصبح نتيجة هذا الضغط الذي لا يطاق الرغبة في التخلص من الظالمين .

واليك مثلاً آخر . ابن استبد به والده كثيراً وكانت تخطر بباله بين آن وآخر هذه الفكرة : « إذا مات والدي اصبح حراً ، وهكذا اتصرف بالمال كما اشتهي واريد » . وبعد ذلك مات الوالد . ولكن الولد ظل يعيش كما كان يعيش يوم كان والده حياً . فالتوبيخ المعاق ، انما وَلد مظهر الاطاعة ولكنه جاء متأخراً .

وقوة الارادة ليست دائماً قوة حقيقية ولا ضعف الارادة ضعفاً في الحقيقة . وكثير من ضعاف الارادة قاموا بجهود جبارة لاذلال ارادتهم ، وهكذا اساءوا استعمالها ، فلم يبق لديهم بقية منها . اننا نرى غالبا ان فقدان الارادة في احيان كثيرة اصعب من الارادة . وما يطلق

عليه (الارادة الحديدية) ليست عادة سوى قنـــاع قوة يغطيها الضعف بمهارة .

ان سرّ النجاح ان يريدالانسان ما يستطيع القيام به، وان يستطيع عمل ما تمليه عليه ارادته . وان اعظم هدف في الحياة ان نعرف ارادتنا، وان نظهرها امام ارادة العالم المعاكسة حوالينا ، وان نجعلها قابلة للتكيّف في نار شهواتنا . وان نلطفها بالمعرفة التي تنزل علينا برداً وسلاما وهكذا نستخدمها مرة ثانية كسلاح — بل كمحارب في هذه الحياة .

ان الطريق الذي يجب على ضعيف الارادة ان يسلكه هو معرفة الذات، إذ هو الذي يؤدي به الى معرفة مملـكة الارادة الصحيحة ، واول خطوة نحو الشفاء ، هي في تتبّع مصدر آلام اولئك الناس ،

وسنجد ان جميع ضعاف الارادة لم يتنازلوا باطنياً عن اغراضهم السرية ، فيجب عليهم بادىء الامر ان يفهموا ما لا يجرؤون على ارادته كي يستطيعوا ان يريدوا ما يمكن بل ما يتوجب عليهم عمله .

الفصل الرابع عشر

عيوب (الهيبنوتزم) التنويم المغناطيسي

اننا نتعلم من نظرة الى واجهة بائع الكتب مرتبة ترتيبا متقنا لجذب انتباه الناس ، اكثر من درسنا المتواصل لحاجات النوع الانساني وضعفه . قل لي اي كتب تباع فاقول لك ما هو النقص في اولئك الذين يشترون تلك الكتب . وانك لتجد دائما بجانب الكتب الاعتيادية عن الصحة واطالة العمر ، كتباً تبين كيف تجدد القوى الخائرة، وكيف تنقلب الارادة الضعيفة الى ارادة قوية . والحقيقة ان ضعف الارادة ، امر يشكو منه الناس شكوى مرة هذه الايام . وقد مر علينا وقت طويل حتى تمكنا من ان نكتشف بأن « المرض العصبي — (النفرزة) » هو ايضا مرض من امراض الارادة . فالعصبيون (النفارين) هم فاقدو الارادة . وانما ينشأ شعورهم بالضعة والمذلة (الصغار) من هذه الناحية . يذهبون الى الطبيب شاكين باكين لضعف ارادتهم وقد تصل حالتهم احيانا الى درجة مضحكة . وهناك من العصبيين (النفارين) من لا يستطيع ان يبدأ اي عمل مهما كان نوعه ، ذلك لانهم لا يستطيعون اثارة قوة ارادتهم . هذا النوع من المرض المحزن يعرف (بالابوليا) اي فقدان الارادة . واليك هذا المثال ، شابة عمرها ٢٤ سنة ، تشكو فقدان الارادة ولا

تستطيع ان تنهض من فراشها في الصباح لانها عاجزة عن ان تجمع المقـــدار الكافي من قوه الارادة الضرورية لغسل وجهها وارتداء ملابسها . في حين تحتـاج عند المساء الى ساعات وساعات لتعود الى فراشها. وإذا ارادت ان تصل الى حكم هام غير اعتيادي لتنفذه، مثّلت مأساة صغرى، واخيراً قررت عائلتها ان يفحصها اختصاصي بالامراض العصبية . وتوافق هي على ذلك كل الموافقة ولكنها تترك يوما يمر بعد آخر فلا تستطيع ان تحرّك نفسها لتخطو خطوة هي سهلة واضحة بالنسبة الى غيرها من النـاس الاسوياء ، ولنبحث الآن في سبب هذا الضعف المخيف في ارادتها . كانت قد ارسلت الى مصح لشكواها من انحراف عصبي بسيط . وكانت هذه الشكوى العصبية نتيجة اختيـار غير موفق للزوج . وصدف ان تعرفت وهي في المصح بشخص تعلق قلبها به . فطلب اليها ان تترك زوجها واطفالها وتلحق به . لـكنها لم تستطع ان تجمع ارادتها لتقوم بذلك . وهكذا ضحت بلذتها الشخصية في سبيل هناء اولادها الذين لم تشأ ان تسلبهم امهم واباهم وتخيلت بانها انتصرت على نفسها في هذا النزاع . وعادت الى البيت من المصح وقد تعافت في الظاهر ولم تمضِ بضعة شهور حتى عادت الابوليا تتسرب اليهـا ببطء . واخيراً تسلطت عليها وقهرتها فجعلتهـا عديمة النفع بالمرة في جميع اعمال الحياة كبيرة كانت ام صغيرة .

وقد اظهرت ارادتها المعاكسة قوة خارقة ، في مقاومة هذا الضعف في ارادتهـا ، وكان ذلك ضروريا لـكي تستطيع تحمل التجربة التي فتنتها . وهكذا انقسمت ارادتها بين باعثين قويين يعملان فيها ، احدهما

يدفعها نحو الحرية ، وارضاء شهواتها المكبوتة وما هنالك من وعود عن هناء لم تعرفه ، والآخر يضرب على النغم الممل اي القيام بواجبات الزوجة والامومة .

ويمكننا ان نصف العصبي (النفروز) بانه ذلك الشخص الذي تتحكم فيه ارادات مختلفة ، فالباعث من جهة وعامل المنع وضبط النفس من جهة اخرى يتنازعان تنازعاً عنيفاً فيه فلا تبقى لديه قوة كافية لمقارعة الحياة . ويتساوى الناس في الاصل من حيث كمية قواهم الارادية . انما السبب الذي من اجله يظهر احدهم قويا نشيطا والآخر ضعيف الارادة خائر العزم ، يرجع الى ان احدهم استجمع قواه كافة ، وطبقها على اعماله في حين انفق الآخر هذه القوى في النزاع الداخلي فيه .

وإذا اعتبرنا قوانا جيشاً من الجنود قلنا انه يتوجب على العصبي (النفروز) ان يقاتل اعداءه الداخليين وان يدافع عن نفسه ضد اخصام وقفوا له على (الحياد) في حين ان الصحيح المعافى في امكانه ان يستغني عن جميع جنوده فيوجههم الى مهاجمة العدو الخارجي . فحالة التشتيت في الوقت الحاضر هي السبب في وجود كثير من الناس المشتتين ، الذين يتقلبون صعوداً ونزولاً في رغباتهم من جراء تقلبات ارادتهم من جهة ومن ارادتهم المعاكسة من جهة اخرى .

ولعل كل اختصاصي في العصب قد راجعه بعض ضعاف الارادة من الناس طالبين اليه ان يجهزهم « بارادة جديدة » واكثر هؤلاء يرغب في الحصول على ارادة جديدة عن طريق التنويم المغناطيسي .

وعلى الطبيب ان يتسلط عليهم ليتمكنوا من جمع قواهم بمقدار كافٍ ليقدروا على السير نحو هدفهم . والمبالغة في اهمية التنويم قد شاعت كثيراً عند النـاس فتجد في كل مكان منومين اتخذوا التنويم صناعة دون اية معرفة طبية بسيطة، او دون فهم للشكاوي العصبية ، فيحاولون ان يهـاجموا ارادة شخص آخر ، وهي ميكانيكية مركبة غير بسيطة ، ويتصورون ان في امكانهم ان يغيّروا ما في النـــاس بمجرد كلمة يتلفظون بها . ارجو ان لا يساء فهمي ، فانا لا انكر حصول نتائج من جراء التنويم . ولكن هذه النتائج لا تكون في اية حالة من الاحوال دائمة، ويتبع هذا الاختلاط شفاء سطحي لا يدوم طويلا . وقد يشفى العصبي (النفروز) في بعض الاحيـان بالتنويم إذا كان يملك حقيقة ارادة للشفاء . ولكن في مثل هذه قد يشفيه مستهو او طبيب حنون ، او مداواة بالماء او بالاعشاب او حج الى كعبة ما . فقد كان المريض مستعداً للشفاء وانما كان في حاجة الى انتحال عذر ليشفى. ولقد شاهدنا مثل هذا كثيراً في الحرب ، ورأيت رجالا اصابهم الفالج واخرين فقدوا النطق او ارتجت اطرافهم ، شفوا بعد معالجات مغناطيسية ، ولكن الاختبار دلنا على انهم عادوا مرضى عند اول باعث او محرك، وهذا ما حدث مع الذين تداووا بطريقة (بطارية فردي) الفعالة فأعادتهم الصدمات الكهربائية واوجاعها مرة ثانية الى ساحة القتال .

والعصبيون (النفـاريز) اناس تعساء لا يستطيعون ان يكتبوا نصراً لانفسهم في نزاعهم النفسي ، فمثل هذا التداوي السطحي انمـا

يؤجل مشكلتهم مدة من الزمن . فالشفاء الكامل هو التخلص من « ارادة المرض » ومن تنازع الرغبات ، وينتج عن هذا شخصاً يتفق مع ذاته .

ومن السهل ان نفهم ان التنويم يساعد البعض في بعض الاوقات على الشفاء فيدلهم على الدرجات الاولى الى ان يتمكن الرجل من الاخذ بيد نفسه ولكن لا يكون هذا إلا نادراً . في مثل هذه الحالات يفيد التقنيع البسيط والاستهواء او اي نوع اخر من التداوي كما يفيد التنويم إذا (تمكنت ارادة الصحة) سراً من تمهيد الطريق لهذا التحوّل العجيب . ولكن كيف يستطيع التنويم ان يساعد الصبية التي تشكو مرض الابوليا ؟ نحاول ذلك وتبتدىء (بالارادة) فتظهر صحيحة ما دام إلهام المنوّم ينفخ في ارادتها مظهراً جديداً من مظاهر الحياة . ولكن إذا تُركت وشأنها تعود فتنغمس في ذاتها مرة ثانية او قد يحدث تغيير في اغراضها . ويظهر ضعف الارادة هذا كأنه تلاشى وزال ، ولكنها تقع في حالة مضطربة من حالات العقل ، وقد تفلج هستيرياً .

فالتنويم ليس هو المداواة البريئة التي يمثّلها المنومون والذين يقومون به في العلن لتسلية الناس ، بل هو هجوم قوي جبار على ميكانيكية (النفس) وقد لا تظهر نتائج هذه المداخلة القوية إلا بعد فترة من الزمن حين تزول الحالات من الذاكرة ولا يبقى ثمة ما يربط بين الانزعاج الجديد وفكرة المداواة بالتنويم .

وليس غرضنا هنا ان نبحث في طبيعة التنويم لانه موضوع واسع ، وهناك الشيء الكثير من عنصر التمثيل فيما يقوم به المنومون ،

والمنوَّمون بالاكثر . فان المرضى الذين ناموا نوماً عميقاً في الحـالة المغناطيسية اكدوا بانهم انما كانوا في حالة (سبات) ولكنهم كانوا شاعرين بجميع ما كان يدور حولهم وهم على تلك الحالة . وكل منوِّم فيه عامل من عوامل السحر، فهو يتخيل بان في امكانه الاتيان بنتـائج عجيبة بل خارقة عن طريق ارادته . ولكن العجب الوحيد هو ما يستطيع الصبر ان يقوم به بالاساليب الطبيعية . لم اكن يوماً ما لاجسر على الاعتقاد بان الامرأة التي تتألم من ضعف في ارادتها تشفى شفاء دائمياً بالتنويم او بمجرد تلقي امر مني . وقد دلنا اختبار الحرب مرة بعد اخرى عـلى ان في الامكان ان نشفي النفارين (العصبيين) باتباع جميع الطرق الممكنة وحتى غير الممكنة في بعض الاحيان .

فالبكم شفوا عن طريق مصل عديم الضرر حضِّر لهم في مهرجان خاص بعد معالجة واحدة ، والعرج تعلموا تحريك اطرافهم باستعمال مخدر وقد اوهموا بان عملية قد اجريت لهم وهم تحت تأثير المادة المخدِّرة . واصبح رجال كانوا يشكون من رعشة مخيفـة ، هادئين ، عندما احضر لهم نوع من الآلات قيـل لهم انها من (وسائل الشفاء الدائمة) والحقت بها بعض تحضيرات تناسب المقام . كما ان التنويم اثر في شفاء موقت لكثير من الجنود المصابين ، وبالرغم من ذلك فليس لي إلا ان احذر النـاس من استعمال هذه الوسيلة للشفاء دون تبصر او تعقـل ، فانني اعرف رحالين ومهندسين وممرجين وطلابا ، يحبون ان يصطنعوا التنويم امام معارفهم بل يفتخرون بانهم يعالجون كل نوع من انواع الامراض العصبية بواسطته . اما ما هو الضرر

الذي ينجم عن ذلك في حالات خاصة ، فامر يكشفه الاختصاصيون بالاعصاب . ويجب ان لا يسمح الفرد لنفسه في اية حالة من الحالات ان ينوّم شخصاً آخر من اجل المزاح او التجربة .

ان المنوّم يملك سلطة تامة على فريسته بعد بضع جلسات تنويمية فاذا لم يسأ استعمال هذه السلطة ، واستعملت لنفع المنوّم كانت العلاقة بين العبد والطاغية حينئذ مقبولة بعض الشيء . ولكن هل مثل هذه العلاقة تعد تربية او تدريباً لائقاً لقوة الارادة ؟

جاء في نسخة من جريدة(Neurologisches Zentralblatt) بحث قيم عن التنويم . فقد داوى الدكتور اوسكار كونستام وهو اختصاصي المانى بالامراض العصبية ، مريضة في مصح تشكو الماً عصبياً ، بالتنويم ، ولما كانت تحت تأثير التنويم سألت عن الحوادث التي سببت آلامها ، وكانت في الظاهر قد نسيت هذه الحوادث المؤلمة (او كبتتها) .

هذا الاسلوب في التنويم استعمله في البدء فرويد ولكنه عاد فتركه لانه وجد ان عمل الطبيب هو مران على فضيلة الصدق . وعلى المريض ان يتعلم كيف يدرك بوضوح افكاره السرية وان يتحلى بالجرأة للاعتراف بها علناً . ثم سقطت السيدة مريضة في بيتها وكتبت الى الدكتور كتابا ملؤه اليأس والقنوط ، فكانت تشكو ألماً فظيعاً في رأسها وعادت لا تستطيع عملاً فاجابها الدكتور كونستام :

« عزيزتي السيدة .... اخذت كتابك الآن ، وها انا اسرع فاجيب عليه . عند تسلمك كتابي هذا المساء اذهبي الى فراشك الساعة التاسعة ونامي بهدوء ولا تحلمي حتى الساعة السادسة صباحا ، عندئذ

تدركين سبب انزعاجك ، وتشفين حالا . وفي اليوم الذي تشفين فيه اكتبي لي بالتفصيل عما جرى لك . ثم مزّقي الكتاب اربا وانسي محتوياته . »

الامضاء : الدكتور ك.

وهكذا صار ، فانها لما اخذت الكتاب نامت حالا وكتبت الى الطبيب تُخبره عن حادثة جرت لها منذ سنوات بعيدة لم تكن ذات بال وشفي ألم رأسها .

ألا يقرب هذا من السحر ؟ ولكن هل الاعتماد على المنوِّم شرط في شفاء ضعف الارادة ؟ وهل من الضروري كل الضروري ان نستعمل تدجيل التنويم بالمراسلة لكي نحصل على هذه النتيجة ؟

إذن كيف نعلل حدوث ذلك ؟ ذلك بان السيدة كانت تنتظر كتابا من منوّمها . وجماعة فرويد يقولون — ولهم بعض الحق — ان المنوَّم يقع حالا في حب المنوِّم . والحب هو « ارادة الخضوع » ولهذا يصبح دستور التنويم هكذا « الآن يمكنك ان تفعل بي ما تريد » . اليس من الممكن ان هذه السيدة كانت تشعر بألم في رأسها لانها كانت تفكر كثيراً في الدكتور ك . مع انها لا تعترف بان مثل هذه الفكرة يمكن ان تنفذ الى افكارها السرية ؟ وهكذا فان معجزة ذلك الكتاب امكن حلها حلاً طبيعياً ، فالطبيب يفكر فيك ويجيبك حالا ، ويرفع يده ليحيّيك وبهم بك ، انت إذن غير منسية — أدخلي الى قلبه السرور واثبتي له عظم قوته —.

ماذا يستطيع ان يفعله لك حتى عن بعد — ؟

اي طبيب لا يستطيع ان يذكر حوادث كثيرة تشبه هذا الشفاء العجيب دون ان ينسب ذلك الى قوة تنويمية بعيدة الاثر ؟ فهناك دائماً اناس يتشوقون الى ان يكونوا تحت سلطة غيرهم . ولكن لكي يكون المرء صحيحاً يجب ان يكون متكلا على نفسه ، والتنويم يدفع الارادة المريضة جانباً مدة من الزمن فقط . والارادة الضعيفة تختفي وراء ارادة غيرها ، وتظهر مرة ثانية عندما يتم الحكم تمثيل دوره .

ولذا اقول لجميع المرضى الذين يتشوقون الى التنويم ، يجب عليكم ان تنالوا الشفاء عن طريق فهمكم في حالة الصحو ، لا عن طريق ارادة غيركم عندما تكونون نياماً . اخلوا انفسكم من عالم الاحلام الوهمي واسعوا وراء حياة حقيقية وذلك بقيامكم بواجبكم . اوجدوا لكم امكانيات جديدة للسرور والبهجة والهناء وذلك بان تكونوا لكم عالماً واسعاً من الفن ، والفكر والتلذذ بالطبيعة . لا تتكلموا دائماً عن آلامكم — التزموا الصمت » .

الفصل الخامس عشر

الرسالة التـــاريخية الكبرى

ان الايمـان بعظمة المرء عقيدة متأصلة في كل فرد من بني آدم . ففي الشباب يرفع هذا الايمان افكارهم الى ما بعد العصر الذي يعيشون فيه ويشير الى مثل عليا . ولكن فورة الشباب لا تلبث ان تهمد ، فيكيّف المرء نفسه مستسلماً للحقائق الجافة في الحياة الواقعية .

والمريض العصبي يعرض جميع الجهود البشرية في اشكال مبالغ فيهـا جـداً ، فاما ان تكون مشوهة فتصبح كاريكاتورية او ضئيلة الى درجة مضحكة . وليس لطموحه من حد . وكل حادثة (في المرض العصبي) هي في اساسها طموح لم يرض . فمـا هو المنفذ الذي يجده هذا الطموح ؟ ان الاعترافات النـاقصة لا تُخفي هذه الحالة . فجميع (العصبيين) يؤمنون بان لهم (رسالتهم التـاريخية الكبرى) . فهم يثورون لانهم لا يريدون ان يمثلوا دوراً عاديا في هذه الحيـاة ، ولا يريدون ان تكون حياتهم مجرد رحلة حاج الى كعبته . فهم يصارعون الالهة بل يريدون ان يكونوا آلهـة هم انفسهم ، وينتحـلون لانفسهم قوى ما فوق الطبيعة الانسانية ، ويرغبون في القيادة والهـدم والبناء ، بل يريدون ان يحولوا العالم ، او يكونوا قواداً او نوابغ او انبيـــاء او مخترعين ، او اصحـــاب عشرات الملايين — بل كل ما لا يجعلهم

ينغمسون كغيرهم في الحياة العادية، فيتشوّقون لكي يمتازوا على الجماعات، ويسيرون عجباً وتيهاً كمن ينظر الى اكاليل الغار بين النجوم ويكرهون كل ما هو دنيوي فيبخسون قيمة الاهداف العادية للاشخاص الفانين تدفعهم الرغبة الى تخليد اسمائهم .

هذا الايمان (بالرسالة التاريخية العظمى) — مثل نابليون، جوته الخ — يؤدي الى الجنون اذا لم يتوازن بشعور معاكس ، — هو الشعور بالضعة والمذلة . فالعصبي يشعر بأنه احط من احط الناس وان كل من سواه اقوى منه واشد تصميما واجمل وجها واذكى عقلا ، ويظل يقابل نفسه ببيئته . فالشعور بالضعة يضخم اهمية بيئته ويقلل من قيمة شخصيته (ذاته) .

هاتان القوتان تتجاذبان العقل الشكاك للعصبي في جهات مختلفة ، فتراه احيانا يتملكه شعور بالعظمة واخرى بعدم الاهمية، وتراه احيانا ملهماً واخرى قد ركبه الشيطان ، ويسكره احيانا جنون العظمة ، فاذا به ذليل منكسر مقهور من جراء شعوره بالضعة والمذلة .

وبموجب توزيع هذين العاملين — (جنون العظمة ، والحس بالضعة) يتكوّن خلق المرء وتنكشف شخصيته . وتستتر واحدة او اكثر من هذه الخصال عن العالم وعن الشخص نفسه احيانا كثيرة .

ولما كان تحقيق اغراض طموحه لا يجد مجالا في العالم الحقيقي ، لذا يعيش العصبي في عالم من الخيال والاوهام ، ويصبح في هذا العالم الثاني الذي يبنيه الحاكم بأمره او القائد الاعلى ، بل الساحر الذي

يستطيع ان يقوم بالعجائب في تغيير مجرى الامـــور والحقائق . وكلما ازداد تعمقه في عالم الوهم ، عجز عن تكييف نفسه على الحقيقة الواقعية الجافة .

وقد ادرك (جوته) هذه الحقيقة وتخيّلها في بطله (فاوست) وهو رجل متفوق في الذكاء كان ينسب الى نفسه قوى هي فوق طاقة الانسان العادي ، فيعيّن لنفسه (الفرد الشرير) لكي يوسع حـدود الانسانية . وهو مؤمن برسالته التـــاريخية العظمى ، وعبثا يحاول (مفستفوليس) ان يثنيه عن عزمـه بتوجيهه نحو الشهوات الدنيوية ولكن الحب لا يؤلف سوى حادثة من الحوادث في حيـاته المكتظة. واوضح من هذا الطبيعة الخيالية للرجل الشمالي التي مثّلهـا (إبسن) في (بيير جنت) فهذا هو العصبي النموذجي (النفروز) الذي يعتقد في رسالته التاريخية العظمى ، فهو يريد ان يكون امبراطوراً وشاعراً ومكتشفاً بحلم انه يغيّر الصحراء الى بحر ، وهو يهرب من اخطار الحب الحقيقي الدي يجهز له البيت وما فيه من راحة وهناء ويقضي على احلامه بعظمته الدنيوية، ويظل (Solveig سولفيج) هو المثل الاعلى الطاهر الذي (يعز الوصول اليه) ضروريا لخيالاته حتى لا يهـدم الحب بامتلاكه .

وقد اشار (إبسن) الى هذه الفكرة في (كوميدية الحب) التي اثارت سخطاً عظيما في بلاده النرويج فاضطر الى ان يهجرهـا . فكتب (بيير جنت) وهو بعيد عن بلاده في روما .

ولكن اذا اخذنا (بيير جنت) كحلم شاعر ، او تصريح صريح بل

مثال ــ للشهوات القاهرة الفياضة ــ اتضح لنا حينئذ مغزى هذه المأساة .

كان (إبسن) ابن رجل غني بذر امواله وترك عائلته في فقر كما يتضح من حالة ابوي (بيرجنت) فقد اضطرا الى ان يهربا من جراء غضب ابناء وطنهما ، ولكن القصيدة تشبه نبؤة مدهشة لهذا الشاعر ، الذي كان يتألم ويئن حنيناً للرجوع الى وطنه وهو في بلاد الغربة . فليس (سولفيج) سوى رمز لنروج ، اي بلاده وموطنه . ومع انها كانت بعيدة عنه، فان اناشيدها لم تزل ترن في اذنيه، ولا يكون الرجل نبياً في بلاده فيصبح (بيرجنت) في الجنوب نبياً ، ويكرم ويعترف بمزاياه في بلاد الغربة(١) حتى اذا ما تعب وتاب رجع الى بلاده، فتستقبله كما تستقبل الام الصابرة طويلا، لفراق ولدها استقبالا ملؤه اللطف والمحبة والتسامح ، وهكذا يصبح (سولفيج) في الفصل الاخير اماً فيقول « كان الولد يجلس في حضن امه وكانا يلعبان طول النهار ، وكان الولد يسكن الى صدر امه طول النهار ، فليبارك الله سروري هذا ، فقد كان الولد رابضا قرب قلبي طول النهار ، اما الآن فقد تعب » . بهذه الطريقة فقط ندرك كيف يصبح المحبوب اماً. لقد كانت بلاد النرويج بلاده ، بل حبه ، وقد انتق جميع رواياته من موطنه وكانت رغباته منصبة لكي يصبح شهيراً معروفا في بلاده فيكتسب بذلك حب مواطنيه .

---

(١) ليس لنبي كرامة في وطنه .

قد نضطر الى ان نثبت ارضاء رغبات الشاعر ارضاء تاماً في بطله (بيرجنت) — وسأشير هنا الى نقطة جديدة وهي مشهد امام ابي الهول — فقد احب فيما بعد ان يصوغ لقرائه ألغازاً فيبرز (كأبي الهول الشمالي) .

إن الحنين الى (الرسالة التاريخية العظمى) قد تحقق بافتخار في الشاعر إبسن ، فان حلم (بيرجنت) قد تحقق ، واستقبلته بلاد آبائه واجداده كالطفل التائب بذراعين مفتوحتين واحلته المكان الاول في قلبها . ومن امثال (بيرجنت) ألوف مؤلفه بل ملايين ولكن واحداً منهم فقط يتحقق حلمه ، فاكثرهم يزجون في بوتقة الصهر ليعاد صوغهم من جديد .

لقد أبنت عن هذه الفكرة في كتابي (الشعر والمرض العصبي) كما يأتي «لكي ينشأ نابغة ، مبتكر ، هدّام ، بنّاء ، يجب ان يقرّب ألوف الضحايا التي لا فائدة منها وان يطرح جانباً عدد لا يعد من العصبيين (النفاريز) قبل ان تظهر الامثولة الكاملة .... » .

الفصل السادس عشر

اختيار المهنة

إذا دققنا في الدوافع التي تدفع الناس عـــلى اختلافهم لاختيار مهنتهم وجدنا ، وقد دهشنا ان اكثر الناس اختاروا مهنتهم صدفة او ما يشبه ذلك. فاذا حللنا اولئك الذين اختاروا عملهم الذي لهم ميل اليه وجدنا دائما علاقة بين اختيار مهنتهم والحب .

ونجد دائما ان للذين اتخذوا مهنتهم صدفة ، مهنة ثانية ، تمثل العمل الذي يدعوهم اليه اختيارهم الحقيقي .

ومن مساوىء هذا العصر ، اننا ينـدر ان نلتـذ لذة حقيقية بالمهنة التي اخترناها. ونقصد بالمهنة هنا ذلك العمل الذي نشعر اننا خلقنا له، وهو العمل الوحيد الذي يبعث فينا سروراً ويسترعي انتباهنا كله .

ان الدور الذي يلعبه الحب في اختيار مهنة الشخص هو جزء من الدور الذي يلعبه الحب في الحياة . ويمكن تشبيهه بشجرة تخترق جذورها اعماق الحياة المادية والغريزية ، ومن جهة اخرى تتطاول قمتها للوصول الى السماء . وكل خليـة في هذه الشجرة تشبع من السائل المتصاعد من جذور الشجرة الى تاجهـا اي من الارض الى اعلاها . وكل واحد منا هو تلك الشجرة — مرتبط بما هو دنيوي وغريزي.

ومن الحقائق المقررة قديماً ان كل فن من الفنون هو حب اعيد

قالبه في اشكال مختلفة . فالفنان يوجد اعماله كما يوجد اطفاله وقسم من حبه هذا يفقده طول حياته . وقد ادرك (رتشرد واكنر) هذه الحقيقة فقال ان الفن يبتدىء حيث تنتهي الحياة ، ولما لم يبق شيء في الحياة نظهر رغباتنا عن طريق الفن . والفنان المتألم انما يحرر نفسه من الغريزة الجنسية الشديدة القوى عن طريق الفن، فان جميع القوى التي افرغها واكنر (في ترستان) كانت خسارة (لمتيلدا وزندنك) . فقد استطاع ان يحرر نفسه بواسطة (ترستان) كما حرر (جوته) نفسه بواسطة (فارثر) من عبودية الحب ليحصل على حرية الخالق المبتدع .

والفلاسفة يشربون من منبع واحد . فقد اكد فرويد في درسه اللذيذ عن ليونرد دي فينتشي ، ان كل شوق الى البحث والاستقراء مصدره الشوق الوحشي الاولي في الطفل لحل لغز نشأة الاطفال .

ومن المحقق انك تجد في اكثر الانظمة الفلسفية تعقيداً ، هو نواة حب مخفية يمكن متابعتها والتأكد من انها مصدر النظام جميعه . ولكل منا ميول محدودة لا يستطيع ان يعللها. فالرغبات البديعية مثلاً تريك تنوعاً عجيباً لاذواق الافراد. فقد تجد احدهم يرغب في العيون ، وآخر في الايدي ، وآخر في الاقدام الصغيرة ، وآخر انما ينظر وهمهم بالانف ، وآخر بصورة الوجه ، وسادس بالمشية وهكذا . وقد دلنا الاختبار على ان مثل الجمال الاعلى انما يحدد في علاقته بمنطقة حب خاصة ، قد نجد ان اكثر اعضاء الجسد التي تجذبنا اليها هي التي تملك اعظم درجة من الحساسية . (والفيتيشية) في الرجل الصحيح — (اي الانجذاب

الجزئي) انما منشؤه في هذا ، ولا يسلم احد منه بالمرة . هذا الانجذاب الجزئي هو الذي يحدد اذواق الناس في مسائل الحب .

وقوة هذا الانجذاب يعبر عنها لا ارادياً في اختيار المهنة . فلذلك قد يضطرب « المسحور بالقدم » فرحاً عند رؤيته قدماً صغيرة البست نعلا جميلة ، كما وقع (لترتيف دي لا برتون) فيختار لنفسه صناعة لها صلة بالاقدام، فاما ان يصبح صانع احذية او اختصاصياً في الاقدام، او في التجبير . وكذلك (المسحور باليد) قد يختار صناعة قص الاظافر قبل كل شيء . والرسام قد تدفعه رغبته في الايدي الى ان يقتصر على رسم الايدي . ونرى آخر يستفيد من رغبته بان يدرس قراءة الايدي ليحكم على الخلق منها . وآخر قد يهتم بعمل اليد الفيزيولوجي . وآخر قد يصبح صانع قفازات ، وقد اعترف لي احد هؤلاء ان رؤية يد جميلة تبعث فيه سروراً زائداً ، لا يفوقه سرور إلا ان يسمح له بتقبيلها ! والشاعر قد يتغنى بمدح الايدي في قصائد ، وقد يكرّس روايته لايد جميلة لسيدة — كما فعل جبرائيل دونتزيو — الذي خصص (الجيوكندا) لايدي (الينورديوز) الجميلة .

وهناك من تتمركز رغبته الحسية في الشَعر . فالحلاقون الذين يبرعون في التفنن بمودة الشعر، ويكتسبون شهرة في صناعتهم، يظهرون رغبة حبية في الشعر . اعرف حلاقاً كان عندما يقص شعراً جميلا ، يعروه حس وخزي في اصابعه ، وكان يتضاعف احياناً الى انفعال شديد من التهيج .

وهذه الرغبة الحبية هي عامل فاصل بين الاطباء في اختيار الفرع

الخاص الذي يتخصصون به ، إلا اذا كانت الصدفة هي السبب الوحيد. فالذي يعجب بالانوف الجميلة يصبح اختصاصياً في الانوف، والمتهالك في حب النساء يصبح طبيباً مولداً ، ويصعد بواعثه الجنسية المعكوسة في ان يصبح جراحاً نسائياً يخلص حياة النساء ، (والمسحور بالاذن) يختار الاذن اختصاصاً له . يجري كل هذا لاشعورياً بالطبع، وبدون ان يتمكن من تعليل تلك الرغبة الشديدة لنفسه (او بدون الحاجة لان يفعل ذلك) .

اما ان الجراح قد حوّل ضعفه الى قوته الخاصة فانما نثبت هنا كلمات (هيبل) حيث قال (ان فضائلنا هي نغول(١) شرورنا وآثامنا) .

وقد يبين تحليل ذهن الشخص لنا سبب اختيار المهنة، قال لي احد الاختصاصيين في (اشعة X) انه قبل اكتشاف اشعة روتنجن اشغل نفسه في التفكير في امكان اختراق اجزاء الجسد الداخلية وان ينفذ الى داخلية الناس المجهولين لديه بطريقة بسيكولوجية. فقد قال عرفت (اشعة X) التي تخترق الروح قبل ان اعرف ادوات روتنحن .

قد نتوسع في البحث اكثر ولكن ما قلناه كفاية للقارىء ليدرك منه مبلغ قوة (الحب) فهو الذي يقرر بقاءنا وهو الذي يخطط لنا طريقنا ونوع معيشتنا، وهو ابداً موجود في اماكن نشك قليلاً في وجوده فيها . فيتخذ ألف شكل ، فاذا هربنا منه ، فهو اقرب الينا مما يكون عندما نفتش عنه .

---

(١) الابناء غير الشرعيين .

الفصل السابع عشر

اسرار النفس

ان النـاس يسعون دائماً وراء السرور . فالسرور كالرؤيا الجميلة الجذابة الخلابة تظل ماثلة امام المرء . فيحسب انه التقطها وامسك بتلابيبها ولـكنها لا تلبث ان تزول وتتلاشى . ثم تظهر على غـــير انتظار في احلامه ، وكأنها جلبت معها ارضاء لرغباته السرية . ولـكن الرغبة اذا ارضيت في الحقيقة فقدت قوتها السحرية في منحها السرور ذلك لان الامتـلاك يقلل من قيمة الشيء المملوك في حين يبدو ما تعجز عن الوصول اليه وكأنه هـــو الوحيد الذي يستحق منا السعي والجهد .

لـكن السرور يتطلب مرافقة شخص آخر . شخص يفهمنا ويستطيع ان يرضي فينا التعطش للحب والصداقة ، شخص يستطيع ان يـكون لنا معلماً بل هادياً ومستشاراً . ونتمكن نحن بدورنا ان نعلمه ونقوده ونصحه . وكل منا يطمح الى ان يجد انساناً آخر يستطيع ان يقوده الى القمة التي يعجز عن الوصول اليها وحده .

ان حاجتنا الضرورية الى العطف والتعبير الذاتي بـل الى وعاء نستطيع ان نسكب فيه جميع افراحنا واتراحنا تنمو مع السنين . وكثيرون يمرضون لانهم لم يجدوا هـذه الصلة الضرورية لذواتهم .

ولهذا يعرضون عن العالم وقد استولى عليهم اليأس فيندبون حظهم ، ويتألمون ويقفون جانباً بعيدين عن مجرى الحياة ، المتدفق ، وجميع هؤلاء العصبيين هم اناس لم تُرضَ رغباتهم وقد اتصفوا بعجز مذل ، فيعجزون عن الوصول الى ما يطمحون اليه فينقطع بعضهم عن العالم انقطاعاً تاماً ويأخذون في الانغماس في حياة غريبة من الاحلام تجعلهم لا يصلحون للحياة الواقعية .

ويظهر انهم (يتمركزون حول ذاتهم) ويتجهون بكليتهم اتجاهاً باطنياً ، اي يتراجعون ليقبعوا بين جدران انفسهم — كأنهم قد انكمشوا حقاً في جلودهم . وقد تصل هذه الحالة بهم الى درجة يصبحون معها وقد فقدوا كل قيمة لهم في الحياة ، فيخسرون طريق الحقيقة . فلا يبقى لديهم اي خيط من خيوط المعرفة ليدلهم على كيفية الخروج من (دهليز قلبهم) ليعود بهم الى العالم الخارجي مرة ثانية .

هذه الحالة دعاها طبيب العصب السويسري يونج الشهير « بالانقلاب الباطني » وهي عرض من اعراض الاضطراب العقلي . فالجنون هو هدم الجسر الموصل بيننا وبين العالم الخارجي بل هو اعتكاف وانفصال ارادي عن العالم .

ومع هذا فهناك طريق آخر . قد يتراجع الانسان الى داخلية ذاته فيعود الى الظهور شخصاً متضاعف القوى يخوض معارك الحياة . لان في النفس قوى خارقة اكثرها غير مستثمر تنتظر كلمة سحرية لتتحوّل الى اعمال . وكل منا يحمل في داخليته نبعاً لا ينضب من الشباب الازلي يستطيع بواسطته ان يبرز نشيطا بل مخلوقاً خلقاً

جديداً ليعالج افراحه او اتراحه من جديد . وجميع المعلمين العظام إنما تعلموا فناً واحداً فقط ألا وهو (التمركز حول ذاتيتهم) . وجميع الفلاسفة المشهورين والانبياء والشعراء ، إنما ينتزعون الهامهم من اعماق آبار نفوسهم . وهم الذين يعلموننا ان ندلي بدلونا فنملأه من اعماق البئر بكنوز لا تثمّن .

وقد بين هربرت سلبرر في كتابه الفريد (مشاكل التصوف والرمزية) ان فن الكيمياء النبيل اي (فن تصيد الذهب) إنما هو حقيقة ، سعي وراء ابريز المعرفة والكيميائي الحقيقي ، هو الذي يطرح (ذاته) في بوتقة النفس لكي يتخلص من الادران التي علقت به ، ولكي يتطهر فيعود ذهباً خالصا، فمن كان غير راض عن نفسه استطاع ان يغير نفسه الى مخلوق جديد ، وليس عليه إلا ان ينغمس في ذاتيته وان يعرف نفسه ويقهرها وينازع نقائصه ويقوي صفاته الجيدة ويكبح جماح رذائله ويقوي فضائله . ويجب عليه ان لا يهرب من ذاته بل عليه ان يعرف نفسه وان يحصر انتباهه باطنيا دون ان يضل عن طريقه ليتمكن من العودة الى الحياة الحقيقية .

ومع هذا فما الذي نراه عندما نشاهد الحياة ؟ نرى الانسانية تضيّع حياتها هربا من ذاتيتها . هكذا نبدّد حياتنا جميعها في عوامل التشتيت ، وفي اعمال لا هدف لها بدلا من اكتناز الحكمة وحسن ادارة قوانا الداخلية .

وليس لدى الرجل المثقف ثقافة حديثة في سعيه الى التفوق الذهني متسع لنفسه بل ليس لديه وقت للتفكير في ذاته ولا لاهدافه

او لفشله او لمكدّراته او لآماله او لانتصاراته . ذلك بان الرجل الحديث قد فقد ادراكه مقدار حاجته الى العزلة . فالخوف من العزلة هذا عند العصبيين قد يصل الى درجة مضحكة، يتمثل فيها هذا المظهر الاجتماعي بشكل هزلي . فامامنا السيدة التي يجب ان تحاط بما لا يقل عن اربعة من الاصدقاء او الاقرباء لكي تحول دون حدوث نوبة عصبية هستيرية شديدة . وامامنا الرجل الذي يرتب عمله في الاسبوع بحيث يقضي كل ليلة في ناد مختلف ويقضي ايام الاحد طبعاً في صحبة كثير من الناس . . . وهكذا فان الخوف من العزلة حتى عند الناس الذين لا يعبأون بغيرهم ولا يكسبون عطف غيرهم بجمعهم معاً — مخافة ان يظلوا وحيدين ، والدافع الوحيد لهذا السلوك الاجتماعي بين الاغراب هو عدم احتمالهم الوحدة . اما الرجل الذي يتمركز حول ذاته فقد يتضايق من غيره لا من نفسه . وله ابداً اسئلة يسألها ويجيب عليها ومشاكل يحلها، فيزور هيكل تذكاراته واختباراته ويقيس الامور ويقدرها ويراجع حساباته وينتقد ويدافع وينتقي ويهمل ، بل قد يخرّب المواد التافهة ويضع أُسسا لمشاريع جديدة . وإذا صح (على رأي ابسن) بان الشاعر هو الذي يستطيع (ان يبني حكما على ذاته) ، حينئذ يكون الرجل المنقلب باطنيا شاعراً ، إذ تصبح الحياة في نظره عملا فنيا يسعى الى تحقيقه ، ويحاول ان يهذب قواه ويتوصل الى ارقى ما يمكن الوصول اليه فيملأ حياته عملا وجمالا . على ان ادراك الاخطاء والذنوب وافكار الحقد الانانية الشريرة والرغبة في موت الآخرين الخ ... كل هذه اساسية في طبيعة (الانقلاب الباطني)

وجميع ما تبقى من الانسان الوحشي الاول يصهر في بوتقة النفس ويعاد سبكه كما قال الشاعر جزءاً من تلك القوة (التي نعجز عن فهمها والتي تريد ابداً الشر وينتج ابداً عنها الخير) . وجميع المحسنين الآن يحلمون في خلق الانسانية من جديد بعد الحرب . فان موجة الكره الهائلة يتبعها تيار قوي من الحب ، فنحن نتكلم عن نزع السلاح والتحكيم والصلح الدائم بين الامم . فهل مثل هذا الخلق الجديد ممكن اجتماعياً اذا لم يحدث في الفرد اولا ؟ وهل كانت هذه الحرب التي هي اشد الحروب وحشية ممكنة لو لم تكن هنـــاك هوّة من الكره والحقد والتعطش الى الدماء متمركزة في قلوب الجميع ولكنها مغشاة بغشاء مزيف من الثقافة . وان هذا المرض العقلي للحرب الذي شاهدنا نموّه ورأينا ما تبعه من فظاعة وقسوة ، قد اثر على احط العقول واسماها لا يمكن اعتباره إلا بانه انفجار اولي لهذه القوى المقهورة . ولا يمكن للانسانية ان تخلق من جديد إلا إذا خلقت كل وحدة فيها من جديد. وعلى كل منا ان ينظر متأملا في كل ناحية من نواحي الحرب ويفحص نفسه ويسعى ليدرك كيف انجرف مع هـــذا التيار العام بل كيف اصبح جزءاً منه . ولا يسعنا ان نبعث فينا القوى التي تغيّر مجرى الحياة والعاطفة إلا عن طريق الحزن . والآن وقد جرعنا جميعاً كأس الآلام وشاهدنا عظمة الحرب وغثينا منها وخبرنا جميع مشكلاتها وارتباكاتها بل جميع عناصرها المدهشة المضطربة وغير الاجتماعية والاجرامية والوحشية والمنحطة — اصبحنا اهـــلا لعصر جديد ولتكوين فكرة جديدة عن الحياة . فيجب والحالة هذه ان نطرح جميع افكارنا وانفعالاتنا في بوتقة النفس ونعيد سبكها من جديد .

ارجع الى رواية (Peer Gynt) وانظر كيف يعيـــد صانع الازرار الشيخ سكب المخلوقات المشوّهة بواسطة ملعقته المـــذوّبة . وصانع الازرار هذا هو (المعرفة) بعينها فكل من يشعر بان ازرار سترته القديمة قد بليت وجب عليه ان يسكبها من جديد . ونحن نتبيّن في الشيخ صانع الازرار رمز الموت والحيـــاة ، وإذن يجب دائما ان يموت (آدم القديم) قبل ان يقوم الجديد من بين الرماد .

يقول (سلبرر) « ان الرموز تجهز كل فرد منا بمغزى هو حقيقي في نظره وهي تحدّث كل واحد منـا حديثاً مختلفاً لا نهاية له ، وكل منـاً يسعى بادىء ذي بدء الى الوصول الى هدفه الخـــاص في العالم المجهول . فليس المهم المثل الاعلى الذي نهدف اليه ولكن المهم اننا نسعى الى الوصول اليه فالسعي والطلب هما أس التقدم والنمو » . وفي محاولة خلق الذاتية الجـديدة تظهر معجزة الخلق من جديد ، وفي الـكفاح الابـدي الازلي للتنوّر والتطهير ، وإنما يفنى ويتلاشى ذلك الذي كف عن القتال والنزاع ولا تعرف النفس حزناً لا يمكن صهره في بوتقتها .

الفصل الثامن عشر

الماضي والحاضر

قالت الزوجة الصبية وقد اقتربت من زوجها الشاعر (يجب عليك ان تروي لنا خرافة البرنسس ومخـــدع كنز حبها) وطلب الطبيب والرسام من الشاعر ما طلبته الصبية ، غير ان زوجة الطبيب قالت (لا اريد ان تقص علينا خرافة بل اريد قصة واقعية) .فاجابها الشاعر مبتسما « يا ليتنا نعرف ما هي الخرافات وما هي الحقائق » ؟ فان كل خرافة تخفي وراءها حقيقة من الحقائق، وسأعتبر خرافتي عرضاً رمزياً لمشكلة تشغلني الآن . فأنا اكتب رواية بطلها رجل لا يستطيع ان ينسى ماضي محبوبته، وقد اصبح من الواضح عندي ان المرء لا يحب شخصاً آخر إلا اذا احب خطيئاته في البـــدء واعترف بماضيه وقبل به . واذا استطعنا ان نتمادى فنحب هذا الماضي كنا قد اجتزنا اعظم اختبار للحب » . وتجهم وجه الصبية وقالت « ليست هذه خرافة بل هي من محاضراتك الفلسفية الدائمة التي تزهقني وتضجرني . انني احب البساطة او .... » فقال الرسام « الخرافة . دعنا بالله عليك نشرع في قصتنا الخرافية ، فاسمعوا . كان هناك اميرة تزوجت من امير وكان يحبها حباً جنونياً ويغـــار عليها من الجميع حتى من ماضيها . وللاميرات عادة ، مخدع لكنوز الماضي ، وكان لاميرتنا هذه مثل هذا المخدع، وكانت تتردد سراً اليه ، وكان الامير يباغتها وهي خارجة

منه وقد لمعت عيناها وتوردت خدودها وكانت عيونها اشد لمعاناً الآن مما كانت حين كان يضمها الى قلبه . ولما كان ماضيها هذا يؤلمه منعها من زيارة ذلك المخدع . وهكذا اخذت الاميرة مفتاحاً ذهبياً واقفلت امام زوجها المخدع الصغير ورمت (مفتاح الماضي) في بحر النسيان .

« ومنذ ذلك اليوم صارت الاميرة حزينة جداً واخذت خدودها الموردة الحمراء تصفر وابتساماتها تذبل وصارت الدموع تنهمر على خديها البيضاويين ولم تكن هي لتعرف سبب ذلك. ولم يكن الاميرولا الاميرة ليدركا ان منعهما من دخول مخدع الماضي هو سبب جميع ما كانت تقاسيه من ألم . واخيراً لم تعد تشعر بأية لذة عندما يقبلها حبيبها . وارسل وراء اشهر الاطباء الى القصر فأشار احدهم عليهما ان يسافرا الى قصر ملك يعرف (بقصر الحب) إذ لم يكن الزوجان الملوكيان قد احبا بعضهما مدة من الزمن ، كما احبا بعضهما من اليوم الاول، ولكن القصر بأكمله لم يكن يسود فيه غير الحب السعيد. وكان هناك ايضا مذبح قد كرّس لآلهة الماضي .

« ولما اقترب الزوجان التعسان من ذلك القصر استقبلهما ملك باركه الحب ، وحيي الامير واستمع الى قصته ولما جاء الى مسألة اقفال مخدع الماضي لمعت عيناه وقال : « اسمع ايها الامير إن هذا هو سبب تعاستك ، دعني انصحك فأنا ايضا كنت اغار من مخدع كنز زوجتي ، ولكنني كنت احبها حبا خالصا بحيث كنت ارى بعينيها واشعر بيدها وأعي بقلبها وكنت ارافقها دائما الى مخدع كنز ذكراها فأصبحت كنوزها كنوزي ، وكنت ارافقها الى مخدعي واتفقنا ان

بجمع بين مخدعي كنزينا . ونحن الآن ندخل الى هذا المخدع في ايام اعياد الحياة ونشعر في كل زيارة بتجدد قوانا واعادة نشاطنا وازدياد حبنا كل مرة ، وقد كانت ذكرياتنا تربطنا معا ارتباطا قريبا بدلا من تفريقنا كما هو الحال مع كثير من الحمقى » لهذا اصدرت هذا القانون في قصري وهو « يسمح بالزواج لاولئك الذين يقبلون ان يوحّدوا بين مخادع كنوزهم ، اما انا فقد رميت مفتاحك ذلك المفتاح الذهبي الثمين الى البحر فعليك الآن ان تحج الى حورية الحلم لتعيد اليك المفتاح من بحر النسيان » .

« هذه هي القصة الخرافية واضيف الى ذلك انهما ذهبا فأحضرا المفتاح فشفيت الاميرة شفاء تاما وعاد حبها للامير وللزمن الحاضر . » فقال الطبيب « واذا لم يدركهما الموت فسيعيشان بهناء الى الابد » « اعتقد ان هناك دائما اناسا لا يستطيعون ان يتخلصوا من ماضيهم والواحد منا يرفض ان يرى ذلك ويطرح المفتاح الذهبي جانبا ولكنه يختلف عن الاميرة ، بانه لا يوجد من يأمره بذلك . وهناك من يحوم ابداً حول ماضيه ولا يستطيع ان يتخلص منه ، بل ينغمس فيه وينسى الحاضر ولا يتهيأ للمستقبل » . فاعترضته امرأة الطبيب قائلة « انك ذو وجهة واحدة ، ألا يجب علينا ان نحب ماضينا ؟ ألا يجب ان نرافقنا ذكريات الماضي الجميلة طول حياتنا ككنوز لا يجوز ان نحطمها » . فاجابها الطبيب « طبعاً » ولكن « يجب ان لا نسمح بان يصبح ماضينا في نظرنا اهم من حاضرنا. هناك ثلاثة انواع من الناس ، رجل المستقبل الذي يعيش ابداً في مستقبله يبني قصوراً في الهواء

ورجل الماضي الذي يحلم بفردوس المـــاضي والذي يفكر دائما في مصائبه المـاضية متذمراً متأففا ، ثم يعود ويبدّل كل ذلك في ذهنه ، ورجل الحاضر الذي يعيش على واجبات يومـه ، هؤلاء هم الاصحاء حقيقة ، هؤلاء هم المخترعون ، رجال الاعمـال ، ذلك بأنه يجب ان نعلو فوق ماضينا لكي نكون اصحاء » .

« كيف ينطبق هذا على خرافة الشاعر؟ ألم تصبح الاميرة مريضة لانها لم يسمح لهـا برؤية ماضيها » . فعدم الرغبة في الرؤية ليست كالتغلب على العقبات . إذ لا بد في فترة من حياتنا لمن نتفاهم مع ماضينا ولكن هـــذا امر آخر يختلف كثيراً عن انشغالنـا بصورة مستمرة بأمور ماضينا .

وكان الرسام ينصت بانتباه للقول فاشترك في البحث حينئذ قائلا « ان من مصائب المرء ان يشغل باله في ماضيه ويصدق هذا على الامة كما يصدق على الافراد . والرجل الذي يشتغل اشتغالا تاما بحـاضره يتغلب على ماضيه بسهولة عظمى ، وهذا هو السبيل الاكيد الوحيد . ولكن مما هو اشد حزنا ان يشعر المرء بحـاضره كأنه ماضيه فتصبح كل حادثة يمر بها المرء كأنها هباء منثور لا ظل لها من الواقع . وقد اختبرت مثل ذلك مرة . ومن حسن حظي ان كان ذلك مرة واحدة، ذلك عندما كنت احب، إذ كنت دائما اشعر بأن ذلك الحب لا يدوم وانه لا شك زائل ، على حين ان المحبين إجمـالا يشعرون بأن حبهم الحـاضر ابدي ازلي ، فهم يحاربون الفكرة القائـلة بأن ذلك الشعور المجيد هو زائل فان . قال الشاعر « والآن اتم خرافتي ، لقد كان

يعيش في تلك المملكة امير اختبر جميع كنوز الحاضر وملاءمتها لمخدع كنوز الماضي .... هذا .....».

فسمع الحاضرون صرخة من الشارع تقول: «الطبعة الاخيرة» فأصغى الجميع واستطاعوا ان يسمعوا جملة «النصر العظيم» بوضوح بيّن. فلم يكن هناك ما يدعو الى احجامهم. فقد انتصر الحاضر «المجيد» فانتظروا بلهف لتحضر الخادمة لهم انباء آخر ساعة، وما اعجل ما كانت هذه الاخبار جزءاً من الماضي الموهوم.

الفصل التاسع عشر

كلمـــات موجزة

ـ الافكار فترات استراحة (انتراكت) بين فصول العواطف.

ـ الفكر الجيد اجلّ قيمة من الرواية السيئة التي تنشرها الجرائد.

ـ اصدق اختبار للقراءة، ان تتمكن من تحويل محتويات الكتاب الروحية الى فكر واحد.

ـ الكتاب الذي يخلق «جوا» محدوداً يميل الى كبت الافكار، ويقتصر عمـــله على التلاعب بالعواطف. «فالجو» كالبرق الافقي والفكر المريح كالبرق الشوكي. ومن المؤسف ان ما يسمع ان هو في الغالب رعد الكلمات الجوفاء.

ـ الجرائد هي ظلال الحوادث.

ـ يطول الظل كلما قاربت الشمس من المغيب:

فالرجال الصغار ـ بناء على الخطأ في الادراك الذي يتألف في هذا المجال البصري ـ ينشرون ظلالا كبيرة.

ـ ستكون الحرب مسئولة عن خلق اضطرابات عقلية اكثر من اضطرابات جسدية.

ـ المزاح سلاح التسلط.

ـ النساء الجميلات يتألمن من اثر الاعباء التي يفرضها عليهن

جاهلين ولكن النساء «المسرورات الفرحات» يتألمن اكثر ، من جرّاء الاعباء التي يفرضها السرور عليهن .

ـ الهيبوكندريا(١) هي مرآة مشوهة للرجل الباطني .

ـ الامراض العصبية إنما هي قصاص يفرضه علينا القاضي الباطني.

ـ للريض العصبي مبدأ واحد وهو (إكره نفسك كما تكره جارك)

ـ الصحة الجيدة معناها الانتصار على الماضي .

ـ ان اصدق الحقائق واعظمها شـــأنا ، يلفظها اناس يتخيلون بأنهم يكذبون .

ـ الكذبة هي (فكة ـ فراطة) المجاملة . والصدق ذهب الخشونة.

ـ ما اكثر ما نضطر الى مقايضة ذهبنا (بفراطة) قليلة . الديون الزهيدة نسدها بالكذب واما الباهظة فبالصدق .

ـ الشخص العادي يعبر عن الصدق بالامثال ، اما العظيم فيعتمد على السكوت .

ـ ان الذي لا يحترم الشؤون العادية في الحياة لا يستحق ان يختبر الشؤون العظيمة .

ـ المنكت الحقيقي يكتشف العظمة في الاشياء الصغيرة ، والصغار في الاشياء الكبيرة .

ـ التوافه تظهر عادة عجز الناس . لا يتهم الاطباء عبثا ، بعجزهم عن مداواة، حتى البرد (الرشح) .

---

(١) الهيبوكندريا هي حالة مرضية يعروها قلق زائد على الصحة واذلال النفس.

— اننا نكتشف ما هو مهم واساسي من نظرنا الى التاثير على ما هو غير مهم وغير اساسي .

— حيثما يسود الضحك هناك تستطيع ان تمكث . ان الذي فقد فنّ الضحك يستطيع ان يصل الى ابعد نهاية .

— ليس هناك من صفة يحسدك الناس عليها اكثر من الضحك . راقب اناسا يشاهدون احدهم يضحك دون ان يعرفوا سبب ضحكه تراهم قلقين مستغربين يتعمدون الاذى بل قـــد يغضبون . ان هناك حقا غير مكتوب هو الحق لمشاركة الآخرين في الضحك .

— انه لأصعب عليك ان تجعل احدهم يضحك من ان تجعـــله يبكي مما يدل على مقدار تألم الانسانية اجمالا .

— كثيرون من الناس يرغبون في التجاوز عن النكات المبتذلة وفي هذا دليل على وجود بعض الطبائع الخالية من الحسد . ما الأم الرجل الذي يحتفظ بنكتة جيـــدة لا يشرك بها غيره . على ان الذي يوزّع نكاته بالمفرق لا يخلو من بعض الانانية . فهو يتمثّل نفسه في النكتة ، ومن اجل هذا يرغب في ان يكون له فضل اكتشافها .

— النكتة نوع من الوحشية المقنّعة بقناع من الظرف .

— ان الذي يحوّل الضحكة على نفسه ، انما يرغب في ان ينزع سلاح غيره الوحشي ، بسلاحه .

— ان من الناس من تستطيع ان تعهد اليهم بكل شيء ما عدا نفسك.

— اذا احببت فقد وجدت الآهك . فجميع الناس بحسب هـــذا القول يفتشون عن الله .

ـــ كان القدماء اشرف منا في عقيدتهم لان آلهتهم كانت من الحيوانات .

ـــ الحب يضم جميع انواع البشر الحيوان والاله .

ـــ مسرة الحياة اجمل انواع التقوى .

ـــ ان الذي يعتقد بالمعجزات هو في حالة يأس . اعظم المعجزات ليست سوى مظهر من مظاهر الطبيعة .

ـــ مناجاة الارواح فكرة مضحكة عن الدين . فالوسطاء يقومون باعمال صبيانية لانها تمثل المعتقدات الصبيانية في بني الانسان .

ـــ يا ليتنا نستطيع الوصول الى الدور الذي نتمكن فيه من مخاطبة ارواحنا ؟ ولو ظهرت هذه الارواح لادركنا ونحن نرتجف انها تتكلم بلغة لا نفهمها .

ـــ ان الذي يتخيل بانه يعرف نفسه ، لا يعرفها في الحقيقة . ان اول مرتبة في معرفة الذات هي الاعتراف بعدم فائدة التأمل الباطني.

ـــ ان اعظم فن عند الرجل المثقف ان لا يكون فنانا .

ـــ النساء يفتخرن بأنهن الهمن ما انتجه الفنانون ، غير ان هذه هي حصتهن في الرجولة .

ـــ تخفي الزوجات الطائعات سلطتهن تحت غشاء من الخضوع . فهناك رجال لا يمكن التسلط عليهم الا بالاطاعة .

ـــ « المودة » هي انتقام المرأة من العلم .

ـــ البيت في نظر المرأة التي تتقن تدبير شؤون بيتها، اثمن من عائلتها.

– اخش من الفضيلة التي تشعر بوجود نفسها . ان اعظم الفواجع في الحياة الزوجية نجدها في فصل الرواية الاخير حيث تمثل الفضيلة دور المفسد .

– يقول الذين لا يعرفون احلامهم «كان يجب ان لا احلم بذلك الامر» غير اننا نحلم في الليل بكل شيء لا يجوز بل لا يستطيع ان يطرأ على اذهاننا في النهار .

– يسألني الناس كثيراً من «اين وجدت الوقت لهذا العمل ؟» ذلك لانني اجد وقتا لكل شيء حتى لان انفق الوقت جزافا .

– اعتذر ابني مرة عن عمل شيء بحجة انه لم يكن في وسعه ان يجد من وقته متسعا لنصف ساعة فقلت له «ان هذا سر نجاحي فأنا لم تنقصني نصف الساعة تلك مرة واحدة» .

– ليس هناك شيء يعرف بالصدَف او الاتفاق ، فالصدف انما هي اتجاهات الى الواجب والطموح .

– قل لي من تتجنب اخبرك من انت . يجب ان يعرف الواحد منا كيف يتجنب الناس الثقلاء ، ويجتذب اليه الظرفاء من الناس . ان الذي لا يستطيع ان يكون عديم المبالاة بغيره لا يعرف قدر نفسه .

– يولد الواحد منا ليكون طائشا ، ولكي يكون فاضلا يجب ان يموت .

– ان طبيعة المرأة الحقة ، ظاهرة في القبعة التي ترتديها لا الكتاب الذي تقرؤه .

– ان طبيعة الرجل الباطنية تفضحها بعض الحقائق التافهة ، ففي مناظر الحياة العظيمة لا يمكن للمرء مهما كان شارد الذهن ان ينسى وضعه المقرر . أعرف قصة تضع بموجبها ام قطعة من الجبن امام خطباء ابنتها . فان قطع الخطيب قطعة صغيرة منها فهو بخيل ، ومثله لا ينفق على زوجته عن سعة ، وان قطعها باسراف فهو مبذر ، لقد كانت تلك الام عالمة بسيكولوجية حقا . واخشى ان يكون الشخص الذي فهم مغزى القصة بأجمعها ، هو الذي تردد في كيفية قطع الجبن هل يسرف ام يقتصد .

– الاطفال هم (الاسمنت) الذي يربط بين حجرين ربطا ابديا ، لكن ألا يمنع هذا الاسمنت الحجران من الالتصاق التصاقا قريبا ؟ ألا تكون تلك المادة فاصلة بين الحجرين ؟

– نعيش مرة واحدة ولكننا نموت ألف مرة .

– ان هيكل الذاكرة يجب ان يزار نادراً اذا اردنا ان يظل مقدسا .

– ان الذي يألف هذا الهيكل يفقد ماضيه وحاضره ولا يبقى له بيت او هيكل .

– بعض الناس لا يسرون ابداً ، إلا إذا كانوا غير مسرورين .

– لا نبكي مصائب الغير وإنما نبكي مصائبنا .

– ان الرجال الذين تؤثر فيهم دموع زوجاتهم فيسمحون لانفسهم بتغيير قراراتهم كان يمكن ان يرضخوا بدون تلك الدموع . إنما يحتاجون الى حجة ليظهروا ضعفهم بمظهر الحنو وكرم الاخلاق .

ـ الهبات المسرفة تقضي على الصداقة .

ـ انه لاصعب علينا ان ننسى السرور من ان ننسى الحزن .

ـ يرى كثيرون في الصداقة وسيلة تعطيهم حق استثمار اصدقائهم .

ـ العزلة هي ام العظمة .

ـ ان الذي يريد ان يبرز على غيره يجب ان يمتنع عن قياس نفسه بالمقياس العادي .

ـ احمرار الوجه مشعل الشهوات الذي يضيء في سماء الحب المتقشف .

ـ الاعياد هي مجون المتهتكين .

ـ الخجل في العادة، ليس سوى دعوة الى عدم الخجل .

ـ لا شيء يدعو الى الملل اكثر من محادثة يكون القصد منها تجنب الملل .

ـ كلنا شجعان عندما يضحي غيرنا بجلودهم .

ـ ان الذي يحترم الماضي الخالد كثيراً، لا يستحق الحاضر الزائل .

ـ كلما ازداد الرجل في تعلم فن التفكير نسي فن الشعور والانفعال .

ـ تتمثل مأساة الحياة بأجمعها احيانا في كلمة واحدة في حين يحتاج الى كلام كثير لاخفائها .

ـ الخصام معناه قتال من اجل شخصيتنا .

ـ القصاص هو محاولة تعديل ظلم بآخر .

ـ ان الناس الذين يسرفون في حياتهم العاطفية، يصبحون مرضى باعصابهم فيضطرون اخيراً الى اعلان افلاسهم النفساني .

– ان الذي لا يقوم بعمل احمق واحد في حياته، هو نفسه احمق حقا.

– اصعب المشاكل ان تمتلك شيئا ولا تتلف قيمته .

– المحبة معناها اكتشاف الانسان الآلهه .

– ان نكون في حالة حب يعني اننا اكتشفنا الهنا .

– ان نحب معناه ان نجد تكملتنا في الانسان ، الاله الذي نزل من مرتبة الالهة الى مرتبة الانسان .

– إنما نفهم اولئك الذين نحب خطيئاتهم .

– العظمة قد نرضينا لو لم تثر فينا الرغبة في شيء اعظم . المجهول هو دائما اعظم شيء .

– الخسارات الكبرى يتحملها المرء دائما اكثر من الصغرى .

– بين واحة الذكرى ، ونهر النسيان تمتد صحراء الجنون .

– الانتحار هو الشكل السلبي للايجابية في الحياة . المتشائمون لا ينتحرون ، إنما ينتحر المتفائلون الذين يدركون عقم طموحهم فيقبضون حياتهم بانفسهم .

– الموسيقى عدوة الفكر اما العاطفة فموت المفكرة .

– تفقد الافكار قيمتها المخلصة عندما تلبّس بالالفاظ .

– احسن الافكار تتساقط لاشعوريا امام ابواب الشعورية .

فهرس الكتاب

صفحة

مقدمة . ٥

الفصل الأول : الانسان الباطني . ٢٠

الفصل الثاني : العمى الارادي . ٢٨

الفصل الثالث : الحساسون . ٣٩

الفصل الرابع : أقنعة الباعث الجنسي . ٤٧

الفصل الخامس : الجماع . ٦٣

الفصل السادس : سباق الشوارع . ٧٠

الفصل السابع : عذاب الاختيار . ٧٨

الفصل الثامن : الخوف من طبيب الأسنان . ٨٦

الفصل التاسع : المتأخرون أبداً . ٩٣

الفصل العاشر : إرادة المرض . ٩٩

الفصل الحادي عشر : الارادة للقبح (نريد أن نقبح) . ١١٠

الفصل الثاني عشر : عالم الوهم . ١١٦

الفصل الثالث عشر : ضعاف الارادة . ١٢٢

الفصل الرابع عشر : عيوب الهيبنوتزم (التنويم المغناطيسي) . ١٢٨

الفصل الخامس عشر : الرسالة التاريخية الكبرى . ١٣٧

الفصل السادس عشر : اختيار المهنة . ١٤٢

الفصل السابع عشر : أسرار النفس . ١٤٦

الفصل الثامن عشر : الماضي والحاضر . ١٥٢

الفصل التاسع عشر : كلمات موجزة . ١٥٧

opeikabooks.com